

دكتور مصطفى محمود والتصوف

دكتور أحمد كمال الجزار



إهداء ٢٠٠٨

الأستاذ/أحمد أحمد عبد الرحمن المنباوى
جمهورية مصر العربية

297,4
ن 429

مطبوعات



قطاع الثقافة

رئيس مجلس الإدارة :

إبراهيم سمعده



قطاع الثقافة

دار أخبار اليوم
قطاع الثقافة
جمهورية مصر العربية
٦ ش الصحافة القاهرة
تليفون وفاكس: ٥٧٩٠٩٢٠٠

د. مصطفى محمود والتمسوا الوقوف

د. أحمد كمال الجزار

تمهيد

هذا الكتاب يتناول دراسة أعمال وحياة د. مصطفى محمود من جانب جديد، لا يعرفه عنه أغلب القراء. وهو الجانب الصوفي، وقد سبقنا غيرنا بدراسة أعمال د. مصطفى وتناول إبداعه بالنقد الأدبي الأكاديمي المنهجي الذي يفيد المتخصصين في هذا المجال، ولا يعنى به عامة القراء، وقد عرضنا التصوف عند مصطفى محمود بطريقة سهلة ميسورة الفهم، وتعرضنا لموضوع الإبداع والفن عموماً من الناحية الصوفية، وسر عذاب المبدع، فالكتاب يهم المبدعين وهم في حاجة إلى معرفة سر الإبداع، وسر عذاب المبدع وقد تناولنا هذا الموضوع من منظور جديد هو الرؤية الصوفية الغيبية الروحية، وهي أصح وأصدق رؤية لتفسير ماهية الإبداع، والذي جهل حقيقته المبدعون أنفسهم.

ونحن نكتب عن مصطفى محمود، كإنسان ومفكر ومبدع، عاشق للتصوف الذي هو الجانب الروحي من الإسلام، ومحِب للصوفية، ولم نكتب عنه كصوفي أو سالك (وإن كان له حظ من ذلك) أو عارف بالله أو ولي من الأولياء. ولما كان الصدق والتحري والتدقيق والوضوح أموراً لازمة عند دراسة هذا الجانب، لجأنا إلى أخذ مصدر معرفتنا من الدكتور مصطفى محمود نفسه أولاً، بإجراء حوار طويل معه، وثانياً بدراسة مؤلفاته بما فيها مجموعة الصراع العربي الإسرائيلي. وإن كان مضمونها يبدو

بعيدا عن مجال التصوف إلا أن منبع كتابتها، ومصدر إلهام د. مصطفى محمود لعرض وحل المشاكل العالمية في هذه الكتب هو البصيرة القلبية أولا، يتوج ذلك كثرة الإطلاع والثقافة والإحاطة بشئون العالم في المرتبة الثانية.

ولقد كان تصنيف هذا الكتاب في البداية عسيراً جداً، لشدة تكتم د. مصطفى لهذا الجانب من حياته، ألا وهو التصوف، وربما يعرف القارئ لأول مرة أن د. مصطفى محمود من أهل البيت، موصول النسب بالرسول ﷺ ولم يصرح لى بذلك إلا بعد تعارفى به وحوارى معه، الذى دام أكثر من شهر لساعة أو أكثر يوميا، كما أنه من أهل الابتلاء الشديد والمرض الجسدى المتواصل، الذى يعتبره نعمة عظيمة من الله عليه بها، بل يقول: إن فترة مرضى وأنا فى كلية الطب هى التى صنعت مصطفى محمود.

ولقد استأذنت شيخى الإمام محمد زكى إبراهيم رائد العشيرة الحمديد والعارف الكبير الذى لا يعرفه أغلب القراء، فى تصنيف الكتاب فقال: «يا ولدى، د. مصطفى محمود رجل ظلمه الأدباء لدينه، وظلمه العلماء لأدبه، وما يحسبون عليه من أخطاء هى له وليست عليه، فاكتب عنه». كان هذا الكلام دافعا قويا لوضع هذا الكتاب، الذى قام د. مصطفى محمود بدور كبير فيه، وساعدنى بكل ما يستطيع من وقته، وآرائه، وتوجيهاته رغم كثرة مشاغله.

والكتاب مدخل لقراءة د. مصطفى محمود من جديد، فبعد معرفتى به عن قرب، وقراءتى لكتبه أكثر من مرة، وأدركت أن أكثر القراء لا يعرفون حقيقته، رغم شهرته العريضة بينهم فى مصر والعالم العربى، والدول الأوروبية التى ترجمت إليها كتبه، وكتاب (حوار مع صديقى الملحد) ترجم إلى الفرنسية

■ تهيهيد ■

والانجليزية، ويترجم الآن إلى الألمانية، وأوصى كل هواة القراءة في الأدب وكل الفنون، والدين، والسياسة، من الصغار والكبار، بالبدء بقراءة مؤلفات د. مصطفى محمود أولاً قبل أى قراءة في تلك المجالات. حتى يعرف القارئ الفرق بين الحق والباطل في وضوح ولا ينخدع بأسماء الكتاب وشهرتهم. فهذا ليس دليلاً على صحة وصدق فكرهم. ود. مصطفى محمود كاتب ملتزم يسعى لرضا الله، ولا يعنيه رضا الناس والسر الذي يكمن وراء تكوين شخصية مصطفى محمود وجاذبيته وحب الناس له من جميع الطبقات والأعمار، هو تدينه الصوفي وحيه لأهل الله وهو الجانب الذي سيعرفه القارئ في هذا الكتاب بالتفصيل، والله تعالى ولي التوفيق والعناية بعباده.

مقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على النبي ﷺ ومن
والاه، ورضي الله عن أصحابه وأتباعه وجميع أهل
الله وبعد.

لا أجد حرجاً في تكرار الكتابة عن التصوف ،
حين أشرع في تصنيف أي كتاب يتعلق بهذا الجانب
الإسلامي، فالتصوف أرقى مرتبة يصل إليها المسلم في جهاده
الأكبر، جهاد النفس. في طريقه إلى معرفة الله تعالى. وهي الغاية
التي خلقنا الله من أجلها، فالكون بما فيه الإنسان هيكلاً محسوس
أظهره الله تعالى لفترة مؤقتة، ظلاً للعالم الغيبي الحقيقي ليعرف
الإنسان ربه. ومعرفة الله تشمل معرفة حقيقة ما في الكون من
معنى وحس وباطن وظاهر، ومن غفل عن هذه الحقيقة فلا فائدة
ولا معنى لحياته. قال ذو النون المصري: السفيه من الناس من
لا يعرف الطريق إلى الله ولا يتعرفه.

ولا يمل كل من كتبوا عن التصوف من ذكر تجربة الإمام
أبي حامد الغزالي (٤٥٠ - ٥٠٥ هـ) وحديثه عن الصوفية في
كتابه الرائي (المنقذ من الضلال) يقول:

«لاحظت أحوالي فإذا أنا منغمس في العلائق (علائق الدنيا)،
ولاحظت أعمالي وأحسنها التدريس والتعليم فإذا أنا فيها مقبل
على علوم غير مهمة ولا نافعة في طريق الآخرة، ثم تفكرت في
نيتي في التدريس فإذا هي غير خالصة لوجه الله تعالى، بل

■ مقدمة ■

باعثها طلب الجاه وانتشار الصيت، فتيقنت أنى على شفا جرف هار. ولم يبق من العمر إلا القليل، ووجدت جميع ما أنا فيه من العلم والعمل رياء وتخيلات، فالتجأت إلى الله تعالى التجاء المضطر الذى لا حيلة له، فأجابنى وسهّل على قلبى الإغراض عن الجاه والمال والأولاد والأصحاب [إغراض باطنى قلبى وليس إغراضا ظاهريا من ترك رعاية الأولاد وشئون الدنيا].

وقدمت على سلوك طريق التصوف مقدار عشر سنين، بالمجاهدة والخلوات، والذكر والعبادة، وانكشف لى فى هذه الخلوات أمور لا يمكن إحصاؤها أو استقصاؤها. والقدر الذى أذكره لينتفع به، أنى علمت يقينا أن الصوفية هم السابقون لطريق الله خاصة، أن سيرتهم أحسن السير، وطريقتهم أصوب الطرق وأخلاقهم أذكى الأخلاق. بل لو جمع عقل العقلاء وحكمة الحكماء، وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء، ليغيروا شيئا من سيرهم وأخلاقهم ويبدلوه بما هو خير منه لم يجدوا إليه سبيلا، فإن جميع حركاتهم وسكناتهم مقتبسة من نور مشكاة النبوة. وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به أ.هـ^(١).

هذه يا أخى شهادة الإمام الغزالى للصوفية، وهذا كلامه عن نفسه، وكان إماما لخراسان والعراق، وحاز فى زمنه الشهرة والجاه والنفوذ، بل حاز من الاحترام ما يشبه التقديس، ولم يجد منقذا من الضلال، إلا سلوك طريق التصوف.. فكيف يكون حال عامة الناس؟!

وفى كل مرة أكتب عن التصوف أجد حيرة فى اختيار تعريف معنى التصوف فتعريفات التصوف تزيد على الألف تعريف، ولكن

(١) المنقذ من الضلال. أبو حامد الغزالى ط مكتبة الجندى ١٩٧٢ من ص ٦٨-٧٧ باختصار.

■ مقدمة ■

الله يوفقني بعونه إلى اختيار المعاني الصوفية، التي تعبر عن الشخصية الصوفية التي أتحدث عنها، وعن د. مصطفى محمود نقول: (التصوف خلق، فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في التصوف) فكاتبنا يخلقك بأدبه وتواضعه وكرمه وحسن أخلاقه، ولم أكن أتخيل أن يفسح لي من وقته الثمين ساعات نتحدث معا، فلا يضيق بالحديث، بل يجيبني بكل رضا وسعة صدر، وإذا اختلفت معه في مسألة، يسعى إلى تعريفى بالحقيقة بطريقته الطريفة، وأسلوبه السهل الميسور. فكاتبنا قلبه يمتلئ بالرحمة والشفقة والحب، لكل إنسان يبحث عن الحقيقة، ويسعى إلى معرفة الله تعالى. وقد من الله عليه بمكارم الأخلاق، وهل الإسلام إلا خلق؟ وهل بعث الرسول إلا ليتم مكارم الأخلاق؟.

ويقول شيخى محمد زكى إبراهيم: «الصوفى الحق هو المسلم النموذجى، المتمسك بالكتاب والسنة فى نقاء وسماحة واحتياط، والتصوف الحق هو الإسلام فى أعلى مستوياته، والصوفى يتحلى بكل وصف حميد مثل الشكر والصبر والزهد، والتصوف تجربة تصل بك إلى التذوق والصفاء والمشاهدة والوصول إلى سر الذات والخلافة على الأرض. ولا يغنى فى هذه التجربة مجرد العلم، غير أن التعبيرات الصوفية، إذا عولجت بالإحساس والتعمق والمعاناة والتذوق كانت قادرة على تغيير الباطن الذى يتغير به الظاهر، فيولد الإنسان ولادة جديدة، أما مجرد قراءة كتب التصوف بلا معاناة فهذه متعة ذهنية وثقافة عقلية، وقد تشارك فيها النفس الأمارة بالسوء فتكون طريقا إلى الضلالة طردا أو عكسا، أ. هـ (١).

وقد أخذ د. مصطفى محمود بكل هذه المعاني فى كتابته عن

(١) أبجدية التصوف الإسلامى. الإمام محمد زكى إبراهيم. منشورات العشيرة المحمدية ١٩٩٥ ص ١٢٨

■ مقدمة ■

التصوف، واحتياط أن يكتب تجربته الذاتية، أو أن يتعرض للأسرار الإلهية التي قال عنها شيخنا إنها تؤدي إلى الضلالة إذا شاركت فيها النفس الأمارّة . وأغلب نفوس الخلق - للأسف - أمارّة بالسوء.

وإذا جاهد الإنسان نفسه بدون شيخ مرشد كامل، لا يتعدى في سلوكه النفس اللوامة.

والنفس الأمارّة صفاتها الجهل والغضب والحقد والحسد، والبخل والكبر والعجب والغرور والرياء وحب الجاه وكثرة الكلام فيما لا يعنى، وكثرة المزاح والتفاخر، وكثرة الضحك التي تميت القلب، لذلك كان الرسول ﷺ يبتسم.

يقول الشيخ عبد الخالق الشبراوى: النفس الأمارّة لا يتميز صاحبها عن الحيوانات إلا بالصورة والشكل الظاهر. وهى من أعدى أعداء الإنسان كما ورد فى الحديث الشريف، وإذا اشتغل الإنسان بالرياضة والمجاهدة التى أساسها الكتاب والسنة، ترقى إلى النفس اللوامة وهى نفس الأبرار والمتقين، تلوم صاحبها أحيانا على فعل السيئات لكنها تتصف بالعجب والاعتراض على الخلق، والرياء الخفى وحب الشهرة والرياسة، وقد تبقى معها بعض أوصاف النفس الأمارّة. ولها أعمال صالحة من قيام وصيام لكن صاحبها يحب حمد الناس له وثناءهم عليه ويكره ذمهم له. وهو على خطر عظيم؛ فحاله لا يخلو من الشرك الخفى. وصاحب النفس اللوامة لا يتعدى هذه المرتبة مهما فعل، إلا إذا سلك على يد شيخ كامل عارف بالله. ولا يشم الإنسان رائحة النفس الثالثة وهى الملهمة إلا بالفناء فى شهود نفسه، وهذا لا يكون إلا بالسلوك الصوفى. ويقرب الإمام الشبراوى المسألة إلى الناس بضرب مثال قال به الإمام أبو حامد الغزالي من قبل ولكن الشيخ الشبراوى

بسطه وسهل فهمه أكثر. قال: النفس مثل شجرة خبيثة عظيمة الجثة كثيرة الأغصان، كل غصن منها يثمر نوعا من السم القاتل. فاشتغل صاحب النفس اللوامة بقطع تلك الأغصان ولم يتعرض لتلك الشجرة من أصلها ولا لقطع الماء عنها لتيبس فلم يمكنه الخلاص منها، لأنه كلما قطع غصنها نبت غيره لبقاء أصل الشجرة أما صاحب النفس الملهمة، فجاء وقطع الماء عن الشجرة فضعت ولم تثمر شيئا من السموم، والأبرار مقبولون عند الله لكنهم لا يخلون من الأكدار ومتاعب الدنيا والآخرة، وأما المقربون فهم أفراد قليلون استغرقوا في شهود الحق فنسوا الخلق فلم يخطر ببالهم لذات الدنيا ولا نعيم الآخرة، فاستراحوا. أ.هـ (١).

والطريق إلى ذلك هو تقليل الطعام والنام والكلام والذكر على الدوام والاعتزال بعد فراغك من مصالح الدنيا التي كلفك الله بها على الحدّ المشروع. وليس من المسلم ما يسمى بوقت الفراغ، والعمر قصير والأنفاس معدودة. فأين الفراغ؟ فإذا فرغت من عمك الدنيوي وهو عبادة فانصب في خدمة الله وهي عبادة أرقى وأهم، وإلى ربك فارغب في معرفته، وتلك قمة العبودية وهي مطلب الإنسان العاقل، وسوف تجد اللذة التي يقول عنها الصوفية: لو علم الملوك ما نحن فيه من راحة لقاتلونا عليها بالسيوف ولن يجد الملل والضجر والشعور بالفراغ وأمثال هذه المشاعر اللعينة، إلى حياتك ثغرة تنفذ منها. وبعد النفس الملهمة تترقى إلى النفس المطمئنة، وهنا تضع أول قدم في السلوك الآمن من القواطع الخطيرة، وتخلص من جميع الآفات، ثم تترقى إلى

(١) مراتب النفس. عبد الخالق الشبراوى ط. جمعية الشبراوى ١٩٨٩ ص ٢٢ - ٤٥ باختصار وتصرف.

■ مقدمة ■

النفس الراضية ثم المرضية ثم الكاملة وبعدها تبدأ السير القلبي والعروج الروحي وليس هناك نهاية للترقي في الدنيا ولا في الآخرة.

وحديثنا عن النفس هو شرح مبسط للسلوك الصوفي، ومدخل لفهم فكر كاتبنا وخصوصاً مسرحيته (عظماء الدنيا وعظماء الآخرة) فالمسرحية حوار بين النفس الأمارة والنفس اللوامة، واحترار القراء حين قال الكاتب أن كل ما على المسرح نفس واحدة، و د. مصطفى لا يستطيع أن يكشف الأمر أكثر من ذلك. فهو يشرح حقيقة إلهية قال بها الشيخ الأكبر ابن عربي، وهي تضاد الأسماء الإلهية، وتجليها على النفوس البشرية وابن عربي يقول عن هذه المعارف الراقية والأسرار العالية في كتابه فصوص الحكم في باب (فص حكمة حقية) في كلمة اسحاقية نسبة إلى النبي إسحاق عليه السلام:

فمن شهد الأمر الذي قد شهدته

يقول بقولي في خفاء وإعلان

ولا تلتفت قولاً يخالف قولنا

ولا تبذر السمرء في أرض عميان

أي لا تعلن المعرفة الإلهية والأسرار السنية، مكشوفة سافرة، لمن لا يستعد لقبولها، فهو أعمى البصيرة، لذلك لم يتطرق كاتبنا في مسرحيته إلى النفوس الأخرى.

سألته: لم جعلت النفس اللوامة تنطق بالمعارف والأسرار الإلهية وهذا ليس مقامها؛ إذ إن ذلك من خصائص النفس الكاملة؟ قال: أعرف ذلك تماماً. لكن عامة القراء لا يعرفون إلا النفس

■ مقدمة ■

اللوامة فكيف أحدثهم عن مراتب نفسية لم يسمعوها؟! ورغم محاولتي تبسيط هذه المسألة، فقد وصلتني رسائل يقول أصحابها، إنهم لم يفهموا شيئاً ولم يفتنوا إلى قصدى من المسرحية، وأنا أكتب لعامة الناس، وليس للأولياء العارفين بالله، فهؤلاء ليسوا في حاجة إلى قراءة كتب مصطفى محمود.

أقول: الكل في حاجة إلى قراءة وفهم كتابات مصطفى محمود. ولكن المدخل إلى فهمه صعب، رغم سهولة عرضه لأفكاره ووضوح رؤيته، لأنه لا يكتب للتسلية والثقافة، وإنما يكتب رغبة في تغيير نفس القارئ إلى ما هو أفضل وأقوم. ومن لم يفعل ذلك بعد قراءة مؤلفاته فما قرأ ولا فهم ولا استفاد، وعليه أن يعيد القراءة، ويهيئ نفسه لذلك بالتصفية والتحلية، واعتقد أن كثيراً من الناس لم يفهموا كاتبنا رغم إعجابهم به وشهرته العريضة بينهم؛ لأنه يرمى بكتاباته إلى مرام راقية وبعيدة تحتاج إلى جهد من القارئ لمعرفة.

ومع أن كاتبنا عن مصطفى محمود والتصوف، إلا أنه تعريف بحقيقة كاتبنا، وكيف يفهمه القارئ ويعرف قصده وهدفه، حتى مؤلفاته ومجموعة الصراع العربي الإسرائيلي.. لا تخلو من التصوف بل لا نبالغ إذا قلنا أن منبع إلهام كاتبنا في بث الحقائق في هذه المؤلفات، هو التصوف والبصيرة القلبية التي تنفذ في التفصيل الكوني والأحداث السياسية والاقتصادية والعلمية والدينية وغير ذلك مما ستعرفه في حينه.

ونشرع الآن بعون الله تعالى وبأنفاس رسول الله ﷺ وأهل بيته وصحابته وأهل الله ومشايخنا في تصنيف الكتاب.

■ مقدمة ■

وقد بدأنا بإشارات جريا مع ما يدونه الصوفية في مؤلفاتهم حتى نأخذ القارئ من عالم العبارة، إلى عالم الإشارة، واخترنا إشارات في منتهى الوضوح، وعلى القارئ أن يترك العبارة ويفهم الإشارة، التي ستزد بطريقت صعبة حين يتحدث د. مصطفى محمود عن التصوف والنقري وابن عربي وأفكارهم الصوفية.



د. مصطفى محمود

والتصوف



إشارات

الوصول

إلى

مضمون

الفصول

الحمد لله الأعز الأكرم. الذي أخذ بناصية الكون
إلى الطريق الأقوم، سجد له النجم والشجر، وكل
ممكن يرجع إلي ما منه صدر، فيعود التائه إلى
قافلته، ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلِهِ﴾ [الإسراء: ٨٤].
يعيش الخلق في كرمه ونعمائه ويحسبون أنهم في
بلائه، الواسع الذي جمع وفصل ودبر، وهدى وأرشد وبشر
وأنذر، خلق الناس، ونوع الأجناس، فاختار كل مخلوق ما هو فيه
الآن، قبل خلق الزمان والمكان، فياذا العقل والمنطق والقياس،
لا تشغل قلبك بإلقاء الوسواس الخناس، فنقع في الحيرة
والالتباس، فقد أمد ربك الناس، هؤلاء وهؤلاء بما اختاره كل واحد
من نعيم وشقاء. التراب أصل الأشباح، والنور أصل الأرواح، وكل
من وإلى أصله جاء وراح، ومن عرف الحقيقة استراح، ولا يفهم
الإيماء إلا الغرباء الأملنا الأخفاء.

هذه إشارات مختصرة لفصول الكتاب المنتثرة، للأتقياء البررة،
ماهى للفجرة، ولا للحيوان النكرة، وإنما لأولى الألباب، أصحاب
العناية الأزلية في أم الكتاب.

فَاعْلَمْ يَا أَخِي أَنَّ اللَّهَ عَدْلُكَ، وَفِي أَحْسَن صُورَةِ خَلْقِكَ.
مَا أَجْبُرُكَ وَلَا سِيرُكَ، وَإِنَّمَا وَسَّعَ عَلَيْكَ وَخَيْرُكَ. فَلَا تَخْرُجْ مِنْ

الرحمة مع من خرج، ولا توغل فتدخل في الحرج، رحمك الله
فظلمت نفسك وفي هذا هلاكك وحققتك، جفت الأقلام فلا تبديل،
فخذ نفسك بالتعديل، واسرج القنديل، كي تُحشر في ظل ظليل،
وتجوز الصراط ولا تميل، وحقّر القليل، وعظّم الجليل، واعمل
بالتنزيل واستعد للرحيل. وخذ النصيحة من مذنّب عليل، يدعو لك
بالختم الجميل، وعدم التحويل.

الكل في عناء وهناء، تحت سطوة الأسماء. إلا من شرب ومن
لذة الاسم طرب، فهو في عناء الهناء، وهناء العناء، ماهي عنقاء،
ولا نقش في ماء، بل شمس في سماء، يراها القلب السليم، ويعمي
عنها السقيم، قرب العزيز عزيز، ونحن في الدهليز، فقد هب
النسيم من الجنان، والدخان من النيران، ما في داخلك يقودك إلى
منزلك.

لا كرب مع الرب، ولا مأساة مع الله، ولا رجيم مع الكريم،
فاهرب من نفسك وفرّ إلى ربك.

وأصلي وأسلم على المعلم الأول، والرسول الأكمل ﷺ الرؤوف
الرحيم، وشفاء السقيم، وبهجة الكظيم، الحبيب المحبوب، مفرج
الكروب وطب القلوب، صاحب اللواء، وكاشف البلاء، وملأ
المنكسرين الضعفاء الأقوياء، شرح الله صدره ووضع عنه وزره،
ورفع له ذكره، فمن عرف بعض قدره، يسّر الله له أمره، فهو
الواسطة والوسيلة، الإحاطة بقدره مستحيلة، قيل لأهل الخرق:
قفوا فمن تقدم احترق، فلزموا الأدب، ونجوا من العطب، وأدركوا
النسب، الذي هو الآن موضوع، وغدا من ممنوع، ومقطوع، حيث
يكون الحبيب مع الحبيب، (سلمان منّا) وأبو لهب غريب، فإن قلت:
أنا من أمته، قيل لك لم تعمل بسنته، فهو جد كل تقى، وولّى

صفي، فماذا قدمت؟ أكلت وغفلت ونمت، ما لهذا خلقت، لكنك منحوس ، وقلبك مطموس، ما أدركت قدرك، وما عرفت عند الله كرمك، خلقتك في أحسن تقويم فأنت سر عظيم، فقم من رقدتك، وانتبه من غفلتك واعلم أيها الأخ الكريم، أن الأمر عظيم، والخطب جسيم، والزمان لئيم، وما الزمان إلا الناس، وهم الآن مطية الخناس، ودواب الوسواس، ركبهم واحتنكهم، وإلى الجحيم قادمهم ، فعميت قلوبهم، وصارت الدنيا همهم ، والمتاع الزائل مطلوبهم.

وأمتنا الإسلامية ، صار نساؤها رجالها، ووسدت أكثر الأمور لغير أهلها، وفي أحوال الفتن والمحن، غرقنا وأصابنا الوهن والعفن. كنا متبوعين فأصبحنا تابعين، للأفاقين والدجالين والكذابين، ولمعت أسماء الرمم ، وتربعت على القمم، ومال الميزان، وهذا حال الإنسان من قديم الزمان، فيا أخى الكريم، الظلم قديم، قدم المخلوق السقيم، والدنيا قماش وورق، وبلاء وقلق، ورأس الحصور تحملها داعرة على طبق، ففرق بين نور الشروق والشفق، واستبصر الأمور ولا تكن غافل، فهذا حال الفاضل ، وذلك حال السافل، وانظر تاريخ الأمم: فرعون يحكم وموسى يرعى الغنم، فلا تغتم، فما هي إلا ساعة ويقوم الساعة، وترى الجبابرة السادرين، أذلاء مهطعين ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين: ٦]

ومهما كان الحال، فالزمان لا يخلو من الرجال، وإن طغى لهو الأطفال، وعلا نفير الأندال، واختفى هزيم الأبطال ، فأهل القدرة، وأخيار الحضرة، يقولون لأشياخنا: لأهل الدنيا بابهم ولكم بابنا. المرفوعون عند الخلق، مخفوضون عند الحق، والاستثناء لا يقاس

عليه، ولا ينظر إليه، فاستبطن العبارة، واستخرج الإشارة.
وَرُبَّ أَشْعَثٍ أَغْبَر، لو طلب التدبير لدبر، ولو رجا تغيير الكون
لتغير، لكن المعرفة والأدب منعه من الطلب، فقد علم العلم المكنون،
وأدرك أن ما يعيشه الناس من شئون مدون مصون وبالعناية
الأزلية ملحوظ، ومسطور في اللوح المحفوظ، وقول الله لا يبدل،
والعالم في المشيئة لا يعدل. لكنك مطلوب بتنفيذ الأمر المشروع،
ومنهي عن المنوع، والله أعطاك الإرادة، فلا تركز إلى جهل
العادة، واترك المألوفات ولا تخلد إلى اللذات، واذكر الله قبل
الفوات، تعرف الأفعال والأسماء والصفات، ولا تفكر في كنه
الذات، فهذا طريق مسدود، السائر فيه متعب مكدود، تقطع دونه
الرقاب، وتغلق الأبواب، هذا مذهب السائر والواقف، وصاحب
المخاطبات والمواقف، والمنازلات والمعارف، ندعو الله أن يبصرك
بأبوابه المفتوحة وعطاياه المنوحة، فالزم الاعتبار، واكسر الأوثان
والأرباب، وجالس الوهاب، يرفع عنك الحجاب، فتسلك الطريقة
وتشاهد الحقيقة.



د. مصطفى محمود

والتصوف



حوار مع

د. مصطفى

محمود

عن

التصوف

اخترنا د. مصطفى محمود موضوعاً لكتابنا، وهو مفكر معاصر. لنكشف الجانب الذي لا يعرفه الناس عن حياته، وهو الجانب الصوفي ونحن لا نكتب عنه كواحد من الأولياء العارفين، لأنه لم يصرح لى بذلك، ولم يرغب فى أن أكتب عنه بالطريقة التى كنت أريدها، ومنعنى من أن أطلق عليه حتى لفظ (صوفى) وإنما نكتب عنه كمفكر محب للتصوف ولأهل الله العارفين، لنرى أثر هذا الحب فى حياته وكتاباتهِ وإن كنت أرى أنه من أهل الله السالكين، إلا أننى أحترم رأيه وأقف عند طلبه.

واخترنا من قبل الأمير عبد القادر الجائزى فى كتابنا (المفاخر) لنفس الهدف الذى نسعى إليه. فأغلب الناس يجهلون التصوف الصحيح والمفاهيم الصوفية السليمة، ولا يعرفون عن التصوف إلا ما يشاهدونه فى الموالد وحلقات الذكر على الآلات الموسيقية، وتزعم بعض شيوخ الطرق الصوفية للإرشاد، وهم لا يعرفون ما هو التصوف!

فهدفنا عرض نماذج من رجال التصوف المعاصرين، والمحبين لأهل الله، لنعرّف القارئ بالتصوف الحقيقى، عسى الله أن يفتح على قلب أحد القراء، فيتجه إلى سلوك الطريق الصوفى.

اخترنا د. مصطفى محمود، لأنه خاض مجالاً فى الدعوة إلى الله من الصعب على أى داعية أن يضع قدمه فيه، وهو مخاطبة

الناس بلسان العصر ، ومنطق العلم، والتقدم التكنولوجي، وأيضا بلسان الفن؛ القصة القصيرة والرواية والمسرحية والمقال الأدبي، وهي محاولة محفوفة بالمخاطر، وفي نفس الوقت مطلوبة أشد الطلب فالقليل من القراء من يهتم بقراءة التصوف، وإذا فتح كتابا في التصوف وجد مصطلحات صوفية، وعناوين عسيرة الفهم تصده من البداية عن مواصلة القراءة، وأراد كاتبنا أن ييسر هذا الأمر لعامة الناس، لإعطائهم مجرد فكرة عن التصوف، فالتصوف ليس معرفة وثقافة ولكنه سلوك وعمل، وأعدّ د. مصطفى برنامجا التليفزيوني (العلم والإيمان) لهذا الغرض، للفت المشاهد، إلى التأمل في عالم الغيب والإيمان به عن تذوق وتزهيده في الحياة الدنيا المادية الزائلة، التي هي لهو ولعب، إذا لم تكن مطية المؤمن إلى طريق الآخرة. وحثهم على الغيرة من الأمم التي سبقتهم في مجال العلم الحديث. ومع أن د. مصطفى يؤمن تماما بأن التصوف هو لخاصة الخاصة من الناس، إلا أنه لم يجد رهبة في أن يتحدث عنه للعامة. لكنه يحدثهم على قدر عقولهم، حتى إذا تناول المسائل الخاصة جدا في التصوف، عرّف القارئ أنه لا يكتب الآن للعامة ولا لمجرد المعرفة والثقافة وإنما يكتب لأهل الله السالكين ، فمن كان منهم فليقرأ ومن لم يكن. فليترك الكتاب حتى يوفقه الله لمعرفة الطريق الصوفي ويتأهل لفهم المعارف العالية، فعل هذا في كتاب (السر الأعظم) وفي كتاب (رأيت الله).

وحين شرعت في الكتابة عن د. مصطفى محمود والتصوف أهملت جانبا مجموعة كتب الصراع العربي الإسرائيلي التي صدرت أخيراً. كي لا يدخل معي القارئ في متاهات السياسة والحروب والمجاعات والإرهاب والغزو الثقافي ، ومشاكل العالم، والدول الإسلامية... إلى آخره. لكن وجدت د. مصطفى يتناول

هذه المسائل ببصيرة المؤمن. وبما قل ودل، ويبسط أعقد المشاكل في صفحات قليلة وربما في سطور، وهو إذا كان يهاجم وينقد الأوضاع الراهنة في العالم، فقصدته في ذلك الإصلاح وإرادة الخير لجميع الخلق، حتى إنه يكتب عن الكرة الأرضية بمن عليها، من جميع الطوائف والملل، ويصر الإخوة المسيحيين بموجات التطرف التي تسود مجتمعاتهم.. وانتهاء بعض هذه الطوائف المتطرفة بالانتحار الجماعي. ويطالب بمنهج علمي لمنع تلوث البيئة، ومنع الخلل الذي حدث في الغلاف الجوى ونجم عنه ثقب الأوزون. ومع أنه يوقن أن السموات والأرض في قبضة الله سبحانه وتعالى، وحمايته العظيمة، إلا أنه ينزل إلى عالم (الحكمة) ويهتم بالأخذ بالأسباب التي خلقها الله لنا، لتساعدنا على الحياة الصالحة وبأسلوب سهل ممتنع، يثير في القارئ الرغبة والتساؤل والدهشة والتفكير في نفسه وفي العالم من حوله، ويحاول إخراجنا من قوقعة الحياة المحدودة والمحصورة في لقمة العيش والمهنة والأسرة والنوم، وضيق الوقت في مجالس الدنيا على المقاهى وفي النوادي والبيوت. والتي لا يتعدى الحديث فيها أخبار الناس، والقليل والقال والخوض فيما يغضب الله.

واعلم يا أخى أن معظم الأدب بأشكاله المختلفة، والمنتشر بين القراء أكثره لا فائدة ترجى منه، بل يضر القارئ ويقتل وقته، ولشهرة بعض الكتاب، انخدع القارئ بأفكارهم. فكان لابد من فضح الأكاذيب والتلفيقات والأفكار المضلة التي آمن بها الشباب نظراً لذيوع صيت الكاتب ومكانته المصنوعة عن طريق الإعلام، وقام رجال الدين بكشف الزيف والضللال الذي تنطوى عليه مؤلفات هؤلاء المبدعين، لكن القارئ لا يقتنع بكلام رجال الدين ويقول الذى يهاجم الأدب لا يفهم الأدب، لأنه ليس فنانا مبدعاً

خلاقا فإذا ظهر كاتب وأديب وطبيب وعالم موسوعي مثل د. مصطفى محمود يكتب الرواية والقصة والمسرحية ، مثل هؤلاء المبدعين، وضمن أدبه، الحقائق الإلهية، والأخلاق الحميدة، صدقه القارئ وقد سخر الله تعالى د. مصطفى لذلك.

وقام بكشف الضلال، الذي بثه أدباء وعلماء الغرب في مؤلفاتهم والذي انبهر به بعض المسلمين للأسف الشديد، مثل فكر سارتر وصمويل بيكيت وكل منهما حائز على جائزة نوبل في الأدب، وهما من الملحددين المنكرين لوجود الله. وعالم النفس فرويد، الذي مازالت تدرس نظرياته لطلبة المدارس والجامعات، ودارون صاحب نظرية التطور. وامتد جهاد كاتبنا في كشف الحقائق أمام القارئ إلى تناول أكبر شاعر عربي هو المتنبي بالدراسة، وتنبيه القارئ إلى شخصية المتنبي الخافية على أكثرنا، والذي ملأ الدنيا وشغل الناس.. وتناول أيضا الفن والشعر الحديث، وأمورا كثيرة ستعرفها خلال قراءة هذا الكتاب.

لقد كنت أعرف د. مصطفى من خلال قراءتي لمؤلفاته مثل كل القراء، ولكنني أحسست أنه يتفرد ببصيرة كاشفة، أكثر من تفرد كاديب ومبدع. وحين اقتربت منه وتعرفت عليه، عرفت السر في امتلاكه لهذه البصيرة؛ إن هذا السر يكمن في صحبته لأهل الله العارفين، وحببه للتصوف، فإذا كان هذا حال المحب للقوم، فما بالك بالسالك والعارف والمحقق الكامل؟!

لم يكن لقائي بسيادته بقصد إجراء حوار، أو تصنيف كتاب، فقد ذهبت إليه، لتقديم الدعوة، ليكون عضوا في هيئة كبار علماء التصوف التي يقوم عليها المركز العلمي الصوفي بالعشيرة المحمدية، كأول عمل من نوعه في العالم الإسلامي، ودار الحديث بيننا دون إعداد سابق وعرفت أنه أخذ العهد تبركا من شيخ

نقشبندى كما ستعرف ذلك فى الحوار التالى وكان الاتفاق حين اتصلت به تليفونيا، أن يكون اللقاء مجرد دقائق ، لكثرة مشاغله ، ولكن الحديث امتد لأكثر من ساعة، وأهدانى بعض كتبه التى لم تكن عندي، وبدأت قراءته من جديد وبدأت فكرة تصنيف كتاب عنه تراودنى، فاستكملت جميع مؤلفاته وقرأتها بتأن وتعمق وتأمل، واكتشفت أنى لم أكن أعرفه حق المعرفة، مثل أغلب القراء، رغم شهرته العريضة، وتكرر بيننا اللقاء والحوار الذى استمر أكثر من شهر، لمدة ساعة أو أكثر كل يوم . وعرفته كإنسان أكثر منه ككاتب مبدع. ولنبدأ بعرض بعض فقرات الحوار، وأعود إليه بالتفصيل حين يأتى موضعه المناسب فى فصول الكتاب. بدأ الحوار فى شقته المتواضعة والملحقة بمسجد محمود يوم الثلاثاء ١٩٩٧/٥/٦ الساعة العاشرة صباحا.

□ كيف بدأت صلة د. مصطفى بالتصوف .. ومتى؟

□□ بدأت بقراءة كتب العارفين بالله، أمثال ابن عربى والنفري وابن عطاء الله السكندري، وأبى حامد الغزالي، وغيرهم، ثم أخذت العهد من الشيخ محمد منذور النقشبندى فى مكة حين سافرت إلى السعودية عام ١٩٦٦ تبركا وليس سلوكا.

□ ولماذا اخترت الطريقة النقشبندية بالذات؟

□□ حين كنت فى مكة ، سمعت أن الشيخ محمد متولى الشعراوى أخذ العهد من الشيخ محمد منذور النقشبندى وأنه يتردد عليه، فقلت فى نفسى اذهب إلى هذا الشيخ الذى يسلك إليه أكبر داعية إسلامى فى مصر، ورأيت الشيخ الشعراوى عنده، لكنى غير متأكد هل أخذ العهد منه أم لا؟ ولم أسأل عن ذلك، ووجدت الطريقة النقشبندية تناسبنى ، حيث أن مدارها على الذكر القلبى وأورادها وأحزابها قليلة، وأنا مشاغلى الدنيوية كثيرة جدا

وكانت مدة صحبتي للشيخ محمد منذور ست سنوات، كنت أزوره في مكة من وقت لآخر.

□ هل قابلتك عقبات وقواطع السلوك المعروفة في الطريق الصوفي؟

□□ العقبة الكبرى، هي نفسى وشهواتها، وجهاد هذه الشهوات وهو الجهاد الأكبر، مرة تغلبني ومرة أغلبها، ومازلت أجاهدها حتى الآن، أما ما يتحدث عنه أهل الطريق من قواطع الجن والشياطين فأنا لم أتعرض لها.

□ معروف أن بدايات السلوك تكون دائما مصحوبة بفتوحات وفيوضات ربانية، لتشويق المريد إلى الاستمرار في السلوك حتى أن ابن عربي خصص بابا في الفتوحات بعنوان (حنين العارف إلى بدايته) رغم وصول العارف إلى أعلى المقامات، فماذا كان نصيب د. مصطفى من هذا العطاء الإلهي؟

□□ أنا أخذت الطريق تبركا وليس سلوكا، ولا أتكلم عن هذه المرحلة من حياتي، ولا أذكر تفاصيلها. وكل ما يمكن أن أقوله لك إنني وصلت إلى حالة، كدت أعتزل الحياة، وأدخل الخلوة، وأكتفى بنشاط دنيوى محدود أرتزق منه، ولكن الله أغلق هذا الباب لحكمة أرادها، ومارست حياتي العادية، وأدركت أن الله أراد لى أن أكون كاتباً وأعيش بين الناس، وكما قلت أنت: مقامك حيث أقامك، وحياتي كما تراها هي مقامى الذى أقامنى الله فيه وأنا راض بذلك. وأكرمنى الله ببعض المبشرات الصادقة.

حاولت بطريقة غير مباشرة أن أعرف، هل فتح الله عليه بتذوق الخواطر والتفريق بينها، وهي أربعة: خاطر ربانى، وملكى ونفسى وشيطانى فسألته:

□ ذكرت أنك رأيت رواية العنكبوت بين اليقظة والنوم، على

شاكلة واقعات الصوفية، فهل هذه الواقعة نتيجة إلقاء إلهي أو ملكي أو نفسي أو شيطاني؟

□□ يجوز أن تكون الرواية نتيجة إلقاء ملكي ، أو نفسي أو شيطاني أنا لا أعرف بالضبط، والغالب أنها إلقاء نفسي.

□ هل لك صلة بالطرق الصوفية في مصر؟ وهل ترضى وتقبل ما يحدث فيها؟

□□ ليس لي أى صلة بالطرق الصوفية في مصر، ولكن يعجبني فكر الطريقة العزمية، وأشعار الإمام أبي العزائم، وأنا لا أَرْضَى عن الكثير مما يحدث في الطرق الصوفية، وأنت تعرف ماذا أقصد، ولكن بعض الطرق تسير على منهج مستقيم، وليس لي مأخذ عليها ، مثل الطريقة التفتازانية وكنت أعرف الدكتور أبو الوفا التفتازاني وهو عالم وعارف كبير، وملتزم بالكتاب والسنة.

□ بعد معرفتك بالطريقة الحمديدية، وشيخنا الإمام محمد زكي إبراهيم، ما رأيك في مؤلفاته وطريقته؟

□□ أنا أقرأ الآن كتاب الفروع الخلافية، وهو كتاب مهم جداً، أما عن الشيخ فهو عارف بالله كبير، ومن أنا حتى أتكلم عنه وعن طريقته؟!

□ أنت تذكر أن أعظم كتاب في التصوف هو كتاب الفتوحات المكية لابن عربي، فما هي الكتب الأخرى التي ترى أنها في مستوى هذا الكتاب؟ وماهي أصح نسخ الفتوحات في نظرك؟

□□ كتاب المواقف والمخاطبات للنفري، وأنا أضعه في المرتبة قبل كتاب الفتوحات المكية، فابن عربي بحره وأسع يفرق فيه القارئ، أمواجه متلاطمة، تأخذه الأحوال والجذبات الروحية في

كتابات أحيانا، وأحياناً يغيب عن روحه ويسرح في مواجيد ومفاهيم صوفية صعبة الفهم، وأنا قرأت نسخة الفتوحات المكونة من أربعة مجلدات، والنسخة التي حققها د. عثمان يحيى (والتي لم تكمل بعد) وأصح النسخ عندي، النسخة المحققة.

□ ما دمنا ذكرنا النفرى وابن عربى فما رأيك فى القول بوحدة الوجود؟

□□ القول بوحدة الوجود ضلال ما بعده ضلال، والصوفية المسلمون يقولون بوحدة الشهود، وينزهون الله تعالى عن الحلول والاتحاد، أما مذهب وحدة الوجود، وأن الخالق هو المخلوق، والله هو الكون فهو مذهب باطل يقول به فلاسفة الهند البراهمة والبوذيون وغيرهم من أصحاب هذا المذهب المضل.

□ ما هى الكتب التى ألفتها فى التصوف الخالص؟

□□ الكتب التى ألفتها وتختص بالتصوف، هى كتاب رأيت الله، والسر الأعظم، والوجود والعدم، وعظماء الدنيا وعظماء الآخرة، وزيارة للجنة والنار.

□ مسرحية زيارة للجنة والنار، أثارت جدلاً كثيراً من بعض الكتاب خصوصاً حول ذكر بعض الفنانين وأنهن فى الجنة؟

□□ الذى أثار هذه الضجة والانتقادات المغلوطة، هم الكتاب الذين مازالوا يعتنقون بقايا الفكر الماركسى. وضايقهم جداً أننى أقعدت ماركس على خازوق من نار (فى المسرحية) وأنا أهدف بذكرى بعض الفنانين وأنهن فى الجنة، أن باب التوبة مفتوح، والتوبة تجب ما قبلها، فأنا أردت الترغيب فى التوبة.

□ هل يمكن أن أقول إنك رأيت الجنة والنار فى واقعة روحية مثلما حدث لابن عربى وعبد الكريم الجبلى وغيرهما

من العارفين بالله؟

□□ لا .. أنا لم أصل إلى هذه الدرجة، والمسرحية مجرد خيال وإبداع فنى، لا أكثر.

□ أنا أرى فى كتاباتك، قبل صحبتك للصوفية روح التصوف، فرواية المستحيل التى ألفتها عام ١٩٦٠م بها نبرة صوفية وأغلب مؤلفاتك تدور حول التصوف فهل نبالغ إذا قلنا إن د. مصطفى محمود رائد الأدب الصوفى المعاصر؟ وهل ترى الآن على الساحة الأدبية إبداعاً (أدباً صوفياً) على شاكلة ما أبدعه فريد الدين العطار فى (منطق الطير) وجلال الدين الرومى فى (المثنوى) وأبو حامد الغزالى فى (رسالة الطير) أقصد الشكل الروائى أو القصصى الذى يحمل فى طيه مضموناً صوفياً؟

□□ لا تقل إننى رائد الأدب الصوفى المعاصر، فلا يوجد أصلاً أدب صوفى معاصر، حتى أكون أنا رائده، ويمكن القول بأن كتاباتى بها نبرة صوفية لا أكثر، وكل الذين ذكرتهم قمم شامخة من كبار العارفين بالله، لا يتناول أحد من المنشغلين بإبداع الرواية والقصة القصيرة إلى مرتبتهم. أما عن وجود روح التصوف فى كتاباتى قبل صحبتى للصوفية، فهذا نتيجة وجود الاستعداد الذى وضعه الله تعالى فى قلبى وهو حب الصوفية، ومحاولة معرفة النفس ومعرفة الله.

□ العارفون بالله ، الذين تأثرت بهم فى حياتك وكتاباتك من هم؟

□□ تأثرت كثيراً بالنفري وكتابه المواقف والمخاطبات، وابن عربى وكتابه الفتوحات، وابن عطاء الله السكندرى، وأنا أعتبر هؤلاء الثلاثة هم شيوخى المستورون، حالة يمكن تسميها

(الوجدنة الروحية) وكذلك تأثرت بالإمام أبى حامد الغزالى وكتابه الإحياء، وابن مكرزون السنجارى وهو صوفى شيعى معتدل، وليس من طوائف الشيعة المتطرفين، وله كتاب عظيم فى السلوك الصوفى، لا أتذكر اسمه الآن.

□ ما هو رأيك فى كتب التصوف المعاصر التى تذكر القطب الغوث والإمامين والأوتاد والأبدال وأصحاب التصريف فى الكون مثل كتاب (الحكومة الباطنية) للدكتور حسن الشرقاوى، وغيره من هذه النوعية؟

□□ أنا ضد هذا النوع من الكتب، فالكتابة عن هؤلاء الأولياء لايجوز أن يقوم بها إلا من شاهدتهم عيانا، أو هم أنفسهم يكتبون ذلك، أما أن نكتب عنهم نتيجة عن وجود ذكرهم فى كتب التصوف، فأنا أرفض ذلك. وكتاب «الحكومة الباطنية» مختلف فيه.

أنا فى عرضك، كفاية نغييب وعى الناس، وندفعهم للكسل والخمول وإذا قلنا إن الأولياء يقومون بتصريف الكون، فماذا تكون النتيجة؟ زيادة تبلد واستكانة، المسلمين مش ناقصين، ومش عايزين نعيشهم فى الأوهام أكثر من كده، لقد فقدوا وعيهم بما يكفى وأصبحوا مثلاً سيئاً للأمم ونكبة كبيرة.

□ ألا ترى أن أى كتاب من كتب الإبداع الأدبى، لا يفيد القارئ فى تغيير نفسه إلى الأفضل ولا يدفعه إلى التخلق بالأخلاق الحميدة والتقرب إلى الله تعالى، تعتبر قراءته ضياع وقت، وضرراً كبيراً للقارئ؟

□□ أنا معك فى هذا رأى، والفنون بكل أنواعها تنقسم إلى قسمين: قسم نطلق عليه (فن قتل الوقت)، وهو ما تحدثت عنه، ولا ينسحب هذا الكلام على الكتاب فقط، بل على أى فن، والقسم

الثانى هو فنون إحياء الوقت التى تبث فى الإنسان الرغبة فى جهاد نفسه، ومعرفتها وتغيير باطنه إلى الأحسن والسعى فى مرضاة الله.

□ فهل يجب على كل كاتب مبدع أن يسلك طريق التدين الصوفى حتى يكون على دراية بمصدر إلهامه، ولا يكون آلة لبث الأفكار الشيطانية وهو لا يدري؟

□□ إذا قلنا بذلك، فلن يكتب أحد من المبدعين، فسلوك طريق التصوف صعب جداً، وهو لخاصة الخاصة، ولكن يكفى تدين الكاتب وإيمانه الإيمان الصادق النابع من القلب، الإيمان هو جذر الموضوع وأصله، والتصوف زهرة أو ثمرة التدين الإسلامى الصحيح المعتدل، أما بعد الكاتب عن الدين والإيمان، فيمكن أن يودى إلى أن يكون آلة لبث الأفكار الشيطانية كما قلت، وما أكثر هذه النوعية من الكتاب.

□ ماذا يمثل التصوف فى حياة وكتابات د. مصطفى محمود؟

□□ التصوف هو مشربى.

لكنى لا أضع نفسى فى عداد الصوفية ولست من رجال التصوف، ولا أحسب أنى وصلت للكمال النفسى الذى يصل إليه السالك ولا أمتلك الكمالات القلبية والروحية التى يصل إليها العارفون بالله.

أنا مجرد محب للتصوف والصوفية، وقارئ لمؤلفات العارفين بالله، فلا تكتب عنى كنموذج للولى المحقق السالك، فأنا عاشق للتصوف، وليس أكثر من ذلك.

□ كل العارفين يرون فى أنفسهم النقص، ولم يقل عارف بالله أنه بلغ درجة الكمال أبداً إلا فى حالات الشطح الصوفى.

□□ هم يقولون ذلك من باب التواضع، ولكن أنا لم أسلك مثلهم كما ذكرت لك، هؤلاء ناس أصحاب منازل ومنازل، وعروج روحى، وكشوفات، وواقعات، ومسامرات، ومواقف ومخاطبات، وفناء فى حضرات الأسماء الإلهية، وعلوم لدنية، إلى آخر ما تعرفه وتحديثنا عنه، وأنا لم يحدث لى ذلك لكن تأثرت بهؤلاء العارفين.

□ من المعروف أن كل من ينتسب إلى الطريق الصوفى يكون له نصيب من الابتلاء، وأدى الناس له، وهذا فضل إلهى ونعمة عظيمة عند القوم. كى يتخلص السالك من الركون إلى غير الله ولا يكون له إلا وجهة واحدة وهى معرفة الله، فماذا كان نصيبك من هذا العطاء الإلهى؟

□□ ابتلائى يتمثل فى المرض الجسدى الذى لازمى فترات طويلة من حياتى وأحمد الله على ذلك، أما عن أذى الناس، فيتمثل فى هجوم الكتاب على، فقد حاول كتاب اليسار والشيوعية، وكذلك كتاب السلفية والأصولية (هم يسمون أنفسهم هكذا) رفضى وإسقاطى ككاتب وأديب ومفكر.

(ويقول ضاحكا بطريقته المعهودة والطريفة) فى بداية كتاباتى وميلى للفكر المادى، جعل كتاب اليسار منى زعيما عظيما، وكاتبا نادرا، تشيكوف العصر، وكتبوا عنى فى مجلة الرسالة عدة مقالات يشيدون بإبداعى وموهبتى، والغريب أنه أثناء هذه الفترة. حين ألفت كتاب الله والإنسان الذى صادرتة الحكومة، قال بعضهم لأحد زعماء اليسار: أنت مخدوع فى مصطفى محمود، وسوف يخذلنا عن قريب، سوف تراه بعد أيام يجلس على رصيف السيدة زينب مثل الدراويش الهبل (لابس شنوال) وقاعد يتسول، أنا ألمس ذلك فى كتاباته. وصدقت نبوءة صاحبنا ولكن

ليس بالطريقة التي ذكرها. وحين تنكرت للفكر المادي، انهالت الاتهامات على من الشيوعيين، حتى أن أحد كبارهم كتب مقالاً في جريدة الجمهورية، يطالب بوقفى عن الكتابة، قال: يجب منع مصطفى محمود من الكتابة مطلقاً! لأن كتاباته ومقالاته تحض الناس على الانتحار، وهو كلام ساذج ومضحك لأنه لا يستند لآى دليل وحين ألفت كتاب (القرآن.. محاولة لفهم عصرى) اشتعلت نار الهجوم من الأصوليين، وقامت د. بنت الشاطىء بمجهود كبير فى هذا الشأن، فكتبت أربعمئة مقال تهاجمنى وتوجت هذا الهجوم بكتاب (المفسر العصرى) وربما لا تعرف إنها هى التى اختارت عنوان الكتاب حيث حدثتها عن فكرته، وصودر الكتاب ولكن د. عبد العزيز كامل وزير الأوقاف ود. عبد الحليم محمود شيخ الأزهر تطوعا - أكرمهما الله - بالدفاع عنى، وقالوا: لا مانع من طرح الكتاب فى المكتبات ود. عبد العزيز كامل من الإخوان المسلمين، ود. عبد الحليم محمود من الصوفية.



مازال الهجوم يلاحق د. مصطفى محمود حتى الآن، وستعرف خلال الفصول التالية، الكثير عن حياة كاتبنا، والجوانب الخفية فى شخصيته وكيف بدأ برنامج العلم والإيمان، وكيف يكتب مجموعته الأخيرة من المؤلفات (مجموعة الصراع العربى الإسرائيلى) والحوار معه طويل، ولذلك وجدنا أنه من الأنسب عرضه فى موضعه من الكتاب.



د. مصطفى محمود

والتصوف



الإبداع

والإيمان

والتصوف

مما يحزن القلب ويؤلم النفس، أن نرى أصحاب
العطاء الإلهي والهبات الربانية، فى حيرة وتعاسة
وشقاء وقلق وضيق، ولا نقصد بذلك أهل الله، بل
نقصد كل صاحب موهبة إبداعية من أهل الأدب
والفن. ونُخرج منهم من اندس بينهم، وليس عنده
موهبتهم، فهذا لا يعانى معاناتهم.

وقد بحث المفكرون قديما وحديثا فيما يسمى بـ"سيكولوجية
الإبداع وماهية الإبداع"، وأخطأ كل من تعرض لهذا الموضوع
بإهماله بعالم الغيب فردّه إلى أسباب وهمية، وعلل نظرية
وفروض فكرية، وتخمينات ملأت مجلدات، وهذه عادة كل مفكر
أسقط عالم الغيب من حسابه وغفل عن سر الإنسان الصغير الذى
هو نسخة من الإنسان الكبير (العالم الظاهر والباطن).
ود. مصطفى محمود أحد المبدعين. والرجل أكرمه الله، زيادة على
ما هو فيه، لم يعلن عن حقيقة نفسه، وانتسابه لأهل الله، فجهل
حقيقته كل من كتبوا عنه، ولم يعرفوا السر الذى يكمن وراء
بساطته وعفويته وسهولة فهم عبارته ومضمون أعماله الإبداعية،
وحب الناس له، الصغير منهم والكبير، حتى أصبح قدوة لكثير من
أولادنا، وشبابنا الصادقين، ونجا من الفخ الذى ينصبه الشيطان

لكل صاحب موهبة إبداعية، فيضله عن سبيل الله، وأهل الإبداع أكثر الناس تعرضاً لنفث الشيطان، وذلك لفطرتهم النفسية وحبهم للتأمل والتهاب خيالهم وهيمانهم فى عوالم وهمية. فالمبدع يكاد أن يكون برزخاً بين العالم المحسوس وعالم الخيال، وهو العالم الذى يجول فيه الشيطان ويصول، وكذلك الملائكة، وعالم الخيال له شأن كبير عند الصوفية.

ورغم ما يعيشه المبدع من حياة الشهرة والصيت والذيع والنجومية إلا أن فطرته الإبداعية تجعله يعيش فى جحيم وعذاب أليم، والغريب أن المبدعين يستمرئون هذا العذاب، وذلك من وسوسة الشيطان وهواجس النفس التى لذتها الشهرة بين الناس. فینصت المبدع إلى الإلقاء النفسى الشيطانى فى قلبه: الفنان لا بد أن يكون قلقاً، هذا عذاب الموهبة، وثمره التفكير والتأمل، أنت إنسان متفرد، ومتميز لست كسائر الناس، أنت تعيش فى عالم المعانى السامية والناس تعيش فى عالم المبانى السافلة، ولا يدرك الفنان البائس المسكين أنه غارق فى العالم المادى، وما يظنه تجليات روحانية، إن هى إلا ظلمات كونية، فعالم المعانى أمره خطير وشأنه كبير، فهو عالم نورانى متوحد ليس فيه تضاد ولا تشاجر ولا يعرف هذا العالم ولا يصل إليه إلا العارفون المحققون من أهل الله.

وأنا - كاتب هذه السطور - عانيت هذه المعاناة، واكتويت بنار هذا العذاب حين اشتغلت فى فترة من حياتى بكتابة القصة وعزف الكمان وقراءة روايات العبث واللامعقول والفلسفة والشعر، وكنت أشعر بالقلق الرهيب، وأبكى بحرقة حين أستمع إلى السيمفونية الثانية لألكسندر بورودين عالم الكيمياء والموسيقى الروسى

العالمى، وأشعر برهبة وخوف حين أستمع إلى السيمفونية الخامسة لسبيتهوفن (القدر) وسكون وصمت داخلى حين أستمع إلى سيمفونيته السادسة الريفية (الباستورال) وكنت أشكو جالى لأهل الإبداع فيقولون لى: هذا تطهير للروح (وهل الروح تحتاج إلى تطهير؟) ما أنت فيه هو عين الصواب، هذا القلق علامة على صحتك النفسية، هذه حمى الأدب، أتريد أن تكون جماداً لا يحس ولا يشعر؟! ثم عرفت أخيراً، حين تعرفت إلى رجال التصوف، أن كل هذه الأحاسيس والمتاعب، نتيجة مرض نفسى وهيمنة شيطانية على قلبى. فالأوزان الموسيقية والسلم الموسيقى، يحرك فى الإنسان الطبيعة العنصرية الأرضية. وليس لذلك أدنى صلة بالروح، ويرتبط هذا الأمر بحركات الأفلاك وتأثيرها فى الأماكن المختلفة من الكرة الأرضية (الأوطان) ولذلك تختلف موسيقى الشعوب. وهذا ظاهر لنا جميعاً، فالموسيقى الهندية غير المصرية، غير السودانية، وعرفت أن الجن والشياطين يعشقون الأنغام والإيقاعات العنيفة، والاهتزاز والرقص، ذكر هذا الكلام من سمعه من الجن أنفسهم وهو العارف بالله محمد الحريرى فى كتابه (الروح وماهيتها) وعرفت أن الوارد الشيطانى على القلب يجعل الإنسان فى حالة قلق وتخبط وسأم وملل وخمول ونشاط وأحوال متضاربة وغريبة، وهو ما يحسبه المبدع عذاب الموهبة ويمكن للأرواح النارية وهى الجن والشياطين أن تلقى فى روع الإنسان رواية أو قصة أو قصيدة وأموراً أخرى كثيرة تتعلق بالإبداع، عرفت أنها من أهل الله العارفين وخبرتها فى نفسى عن تجربة يقينية لا أشك فيها. وأقول هذا الكلام للمبدعين رحمة بهم وشفقة عليهم، كى يتجهوا إلى الله، فهناك الإلقاء الملكى والربانى.

وهو أمر محمود وعظيم، ولو تمكن منه المبدع، لكان له شأن كبير في إصلاح العالم.

استطاع د. مصطفى محمود أن يخرج من هذه الدائرة الملعونة، وهي عذاب الموهبة إلى حد ما، وليس خروجاً كاملاً، بدخوله إلى دائرة الإيمان وحبه للصوفية والتصوف، وسلوكه القليل كما يقول هو عن نفسه والتمسك بالكتاب والسنة، وتوحيد الله الذوقي القلبى، وليس النطق اللسانى، توحيد الشهود اليقيني وسلوك الطريق المستقيم دون شطط أو مبالغة.

المبدعون :

د. مصطفى محمود شديد الولع والإعجاب بمؤلفات ابن عربى، ويعتمد فى كتاباته كثيراً على معارف هذا المحقق الكبير، وابن عربى خرج إلينا من منازلته الروحية بعلوم الأسماء الإلهية وتجلياتها فى الكون وقال: إن الذات الإلهية هى الغيب المطلق الذى لا يعلمه ولا يعرفه رسول ولا نبي ولا ولى؛ لأن معرفة كنه الله تقتضى المجانسة ولا مجانسة بين الله وبين العالم؛ فالعلم بكنهه الذات الإلهية هو الجهل بها كما قال سيدنا أبو بكر (رضى الله عنه).

العجز عن درك الإدراك إدراك :

فلا يدرك العارف إلا أثر أسماء الله وأفعاله وصفاته المتجلية فى الكون، فإذا جئنا إلى الإنسان وجدنا أن كل شخص يتولاه اسم إلهى والله تعالى مولى الكل. ويقول د. مصطفى محمود إن كل إنسان هو الذى اختار هذا الاسم الإلهى بمحض إرادته ولم يجبره الله تعالى على هذا الاختيار، وهذا حدث فى حضرة الأعيان الثابتة قبل وجود الخلق؛ فالإنسان الذى حاد عن الصراط المستقيم

وهو تحت تأثير الاسم «الضال» والإنسان الذليل تحت تأثير الاسم «المذل»، والمهتدى تحت تأثير الاسم «الهادى»، وعلى هذا النحو تكون بقية الأسماء الإلهية إلى أن يأتى إلى الكاتب المبدع فيقول أنه تحت تأثير أسماء الله (البديع، الخالق، الحكيم، العليم) ونحن نختلف قليلا مع د. مصطفى محمود فيما ذهب إليه؛ فمعنى البديع أن الله أبدع العالم على غير مثال سابق، ولا بد أن يكون للاسم الإلهي أثر مناسب لعنايه في الممكن القابل لتأثيره، وهو هنا الكاتب المبدع، وهذا غير وارد في مسألة الإبداع؛ فالمبدع يرسم صورة لظل صورة أخرى، فهو ينقل لا يبدع. وقد ذكر د. مصطفى محمود هذا المفهوم في كتاب الوجود والعدم ص ٧٨ حيث قال: «الله تعالى يخلق على غير مثال سابق بينما الكل من الخالقين، من البشر، يخلق من نموذج أو تعليم أو فكرة مستوحاة، ويخلق من مادة مخلوقة سلفاً». وصفات المخلوق من كونه مبدعا وخالقا، وغنيا، وكريما إلى آخره صفات مجازية من الله. ولا مقارنة بينها وبين صفات الله بأى وجه. ولكننا جريا مع هذا اللفظ المتعارف عليه (المبدع) سنذكره في كتابنا، فنقول إن الكاتب الفنان إنسان مبدع، والغريب أن الفيلسوف اليوناني أفلاطون فطن إلى هذه المسألة وقال: إن الكون الظاهر لنا، هو ظل لعالم المثال الحقيقي، فهو خيال وليس حقيقة، والأديب والكاتب المسرحي (وقد كان أكثر الأدب في عصره مسرحيات) يصور هذا الظل الخيالي فيأتى في عمله الأدبي بظل ثالث ونظرية و(كهف أفلاطون) مشهورة بين الفلاسفة والمفكرين، وقد حالفه الصواب إلى حد ما فيما ذهب إليه؛ فالكون خيال وحق في آن واحد، خيال إذا جردناه عن الإمداد الإلهي الوجودي، وحق إذا استند إلى خالقه.

ونعود إلى د. مصطفى محمود ، وكلامه عن الأسماء الإلهية، وصلتها بالابداع، فنقول ليس كل المبدعين تحت تأثير الاسم الحكيم، بل القلة القليلة منهم هم الذين يستمدون من هذا الاسم. فالحكمة هي المعرفة الحقيقية الكاملة، ووزن الأمور بالميزان الإلهي الشرعى قال تعالى : ﴿ ومن يؤتى الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا ﴾ ولا نظن أن المبدعين من أهل الحكمة إلا فى النادر جدا كما ذكرنا من قبل، والعلم الكامل الحقيقى هو معرفة الحقائق الظاهرة والباطنة وأغلب المبدعين ينطبق عليهم قول الحق تعالى: ﴿ يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون ﴾ ومن لا يخشى الله فليس بعالم ولا حكيم بل هو صاحب صنعة علمية أو أدبية، والدكتور مصطفى يقول عن سارتر وهو مبدع: إنه مفكر سطحى يقول بأننا قد ألقى بنا إلى العالم بدون عون وقذفنا إلى الوجود بلا عناية ولا رعاية (الشيطان يحكم ص ١٧٢). فهذا الكاتب إذن تحت تأثير الإسم الضال وأظن د. مصطفى معى فيما أقول، فسارتر ونيتشه وماركس ومن على شاكلتهم كل ابداعهم يطفح بالإلحاد والضلال والعبث وبث الإحساس بالضيق والغثيان والسأم والاكتئاب ثم الانتحار فى النهاية، فى نفوس الشباب، وقد قال د. مصطفى بهذا القول فى أكثر من كتاب.

وهناك مبدعون رغم أنهم ساروا فى سبل أخرى، قال تعالى: ﴿ وأن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ﴾ «الأنعام - ١٥٢»، والله أعلم بنياتهم وأدرى بحالهم، إلا أنك لا تملك إلا التعاطف معهم، وتآلم من أجلهم. وليس من المصادفة أن يتأثر بهم د. مصطفى محمود، ونحن ضد من قال من النقاد أن د. مصطفى تأثر بسارتر والبير كامى،

وفوكنر. وقد سألته في هذا فأجاب: تأثرت بصياغتهم الأدبية، وتكنيكهم الفني وليس بفكرهم والذي تأثر بهم د. مصطفى محمود ومعه الحق في ذلك:

تولستوى : الكاتب الروسي الزاهد، الذي عاش حياة كلها مأساة ومعاناة طيبة، كان يتطلع إلى تحقيق السلام ونشر العدل بين الناس، وكان قلبه مفعما بالرحمة والشفقة على عباد الله، كان ثريا وصاحب أراض زراعية واسعة، فخرج عنها ووزعها على الفلاحين الفقراء، وعاش في كوخ واتهمه أهله بالجنون ومات وحيدا بائسا.

وكان تولستوى مبهورا بالرسول ﷺ وكان يقول: «لا يوجد نبي حظى باحترام أعدائه سوى محمد ﷺ . لقد هدى مئات الملايين إلى نور الحق وقام بعمل لا يقوم به شخص إلا من أوتي قوة وإلهاما وعونا من السماء».

تشيكوف: رائد القصة القصيرة ، والطبيب الذي ابتلاه الله بداء الدرن الرئوي والذي كان يدعو في كتاباته إلى الصدق وعدم الرياء، والعفة وسمو الهدف، وعلو الهمة. كما تأثر د. مصطفى بدستوفسكى وجوركى وأكثر الكتاب الروس.

ونذكر الكاتب اليوناني نيكوس كازنتزاكي صاحب روايات. زوربا اليوناني، والمسيح يصلب من جديد، كان أستاذا في القانون واشتغل بالمحاماة، وعاش يبحث عن الحقيقة، فاعتزل في دير للرهبان لمدة عامين وخرج منه أكثر حيرة وشكا واضطرابا، وكتب رواية المسيح يصلب من جديد، وسخر وتهكم من بعض الرهبان والقساوسة وكشف بواطنهم القبيحة، مما جعل رجال الكنيسة يتهمونه بالضلال، ودفنوه ولم يُصلوا عليه.

بدر شاكر السيَّاب: الشاعر العراقي العالِم العظيم (١٩٢٦-١٩٦٤) والذي أعجب به د. مصطفى محمود، وخصوصاً ديوانه (أنشودة المطر) والذي مات شاباً في الثامنة والثلاثين من عمره، وعاش مريضاً فقيراً، وتذكر طرفاً من كلامه عن نفسه، لنؤيد فكرتنا التي نقول بها، وهي أن المبدع إذا لم يتجه إلى الله ويلجأ إليه، ويسلك طريقه المستقيم، بعزيمة وقوة حتى يكون له نصيب من التجليات الصوفية، فإنه يعيش في مأساة لا مخرج منها. كان بدر شاكر السيَّاب يصوم ويصلي، ولكنه لم يجعل حياته كلها لله، وهذا سر عذابه وعذاب كل مبدع.

يقول: أنا أشقى إنسان على الأرض، لقد نذرت نفسي للألم والشقاء واليأس والفناء، هناك عند السدرة النائمة قبر مستوحده غريب رأيت أنى راقد فيه تحت الحصى والتراب. في الموت راحة، وقد قدَّر لي ألا أرى هذه الراحة، بل أجتاز محناً بعد محن.

وعن الأسرة والزواج يقول: إن المشاغل والمشاكل تفترس وقت المتزوج وقد عاقتني عن الكتابة، مر عام بأكمله لم أكتب فيه إلا قصيدتين، بماذا أتحدث؟ أعن حياتي المنزلية وصياح أطفالى؟ إن الجو العائلى الذى أعيش فيه هو السبب فى جفاف ينبوع الشعر، إننى مفلس حالياً إفلساً شديداً مستعصياً. قاتل الله الشعر إنه لا يشبع من جوع ولا يكسو من عرى، أنا طريح الفراش فى لندن وقد جاء العيد وليس هناك فى العراق من يشتري ملابس جديدة لأطفالى، إن راتب أمهم لا يكفي لأكثر من إطعامهم.

ولما أصابه المرض أخذ يجار بالشكوى لأصدقائه المبدعين: أنا فى أتعس حال ساعدونى، وإلا فلانى مهدد بالشلل الكلى بعد بضعة شهور. بائس أنا، شقى غاية الشقاء لا أقدر على المشى

ولا حتى على الوقوف. لست متشائما ما زالت في الحياة أشياء جميلة: الشعر، والقصة، وتذكر الماضي، لكن أصبحت عاجزا، إما أن أمشي كما يمشي الناس، وإما الشقاء الذي لا بد أن يؤدي إلى الانتحار، فالموت خير من حياة الكسيح، والمرض لثيم، وأنتظر الفرج ولا فرج، إتنى منكوب. سألت الطبيب عما إذا لم يكن شرب الويسكي.... إلخ مضرا لي وأنتظر جوابه، إن سمح لي بالشرب سأشرب.

لا أكتب الآن إلا شعرا ذاتيا، لم أعد ملتزما، ماذا جنيت من الالتزام؟ المرض والفقر؟ لعل أعيش آخر أيام حياتي. لم أعد أخاف الموت، لقد عشت طويلا، صاحبت (عوليس) في ضياعه [رواية كتبها جيمس جويس وترجمها أحد أساتذة الجامعات في عشرين سنة] وعشت التاريخ العربي كله، ألا يكفي هذا؟ لولا (حماسة أبي تمام) وديوان ابن الرومي لكنت في جحيم من السأم والملل، اهـ^(١).

هذه يا أخي حياة أحد كبار الشعراء العرب والتي ترجمت قصائده إلى الفرنسية والانجليزية والإيطالية، عاش بائسا مريضا يشكو إلى الناس، ولا غرابة في أن يحبه مصطفى محمود. وقد اخترنا هذا الشاعر للشبه الكبير بين حياته وحياة كاتبنا الظاهرة، أما الفرق الباطني فكبير. لقد كان هذا الشاعر شيوعيا في بداية حياته، وكتب السياب مجموعة مقالات بعنوان (كنت شيوعيا) نشرت في جريدة (الحرية) ببغداد وترجمت إلى الفرنسية، وجمعها في كتاب لم يصدر لظروف غير معروفة، ثم كتب سلسلة مقالات طويلة ضد الشيوعية أحدثت ضجة كبرى في العراق،

(١) رسائل السياب - ماجد السامرائي ط المؤسسة العربية للدراسات، بيروت ١٩٩٧.

وأصيب بالمرض وندعو له بالرحمة والمغفرة فيكفى ما عاناه من شقاء، ولكن الفرق بينه وبين مصطفى محمود، أن كاتبنا اعتبر المرض نعمة من الله ولم يشك إلا إلى الله، وأنه استقى معرفته من معين الكتاب والسنة وكتب العارفين بالله، بينما انبهر السياب وتأثر وأخذ معارفه من قصائد شللي، ولامارتين، وبابلو نيرودا وأراجون وت. س أليوت وروايات هيمنجواي ود. هـ. لورانس وإن كان د. مصطفى قرأ كل الآداب الغربية إلا أنه قرأها ونقدها وبين فيها ما الصالح والفاسد.

وهذا هو الفرق بين المبدع الذى له حظ من التدين الصوفى، والمبدع الذى حظه التشئت فى أحوال الدنيا، رغم تدينه، وهذا ما نود توضيحه للمبدعين خاصة.

ونريدك أيها القارئ وأيها المبدع، أن تعرف ضرورة التزام المبدع بالكتاب والسنة وإلا فالإبداع وسيلة لبث المفاهيم الشيطانية ولو كان أشهر مبدع فى التاريخ.

يقول د. مصطفى محمود فى كتابه عالم الأسرار (ص ٤٠ وما بعدها) عن المتنبى:

المتنبى لا يختلف إثنان على عظمته وهو الذى يقول عن نفسه:
ما مقامى بأرض نخلة إلا كمقام المسيح بين اليهود
ويقول:

أنا فى أمة تداركها الله غريب كصالح فى ثمود
ولذلك قالوا عنه أنه متنبى
ومدح ابن زريق فقال :
يا من نلوز من الزمان بظله أبدا ونطرد باسمه إبليسا
وقال فى ابن إسحق التنوخى:

فما ترزق الأقدارُ ما أنت حارم ولا تحرم الأقدار من أنت رازق
وقال في المغيب بن بشر:

وأعطيت الذي لم يعط خلق عليك صلاة ربك والسلام
مدح يصل إلى درجة التبذل والتسول.

نحن أمام عظيم من عظماء الفن بلا جدال ورجل لا خلاق له؛
يقول على بن حمزة: نزل عندي المتنبي فلم أره يصلى أو يصوم
أو يتلو قرآنا.

هذا هو المتنبي أشعر شعراء العرب، فما حظه من الآخرة؟
وسارتر وكامى وموليير وفاجنر ونابليون وهتلر وستالين
وماركس ونيتشه وهيغل وغيرهم وغيرهم من عظماء وأكابر
الدنيا، أين هم الآن وما مصيرهم فى الآخرة؟

القرآن فى ذلك صريح. يقول الله لنبيه : ﴿وإنك لعلك خلق
عظيم﴾ لا يقول له وإنك لعلى علم عظيم أو على فن عظيم أو على
قوة عظيمة أو ثراء أو عبقرية، بل على خلق عظيم وحسب.

ويقول مصطفى محمود فى الموضوع الذى نتكلم عنه وهو
الإبداع. فى كتاب (المؤامرة الكبرى ص ١١٨):

طلعت علينا قوافل من الشعراء يقولون بصحوة شعرية وثورة
فنية، أحد هؤلاء العابثين يكتب قصيدة عن حرف الجيم اسمها
الجيم تجنح:

جيم جمزت

جيم بجحت

جيم من يأجوج ومأجوج

وصفحات من الهراء والتخريف ، ورأى يقول إن الله ظلم
حرف الجيم فى القرآن وأنصف النون والصاد والقاف. ويقول

هذا الشاعر الفحل العبقري: أنا لا يفصلنى عن المتنبي إلا أحد عشر قرناً وما كان يستطيع أن يقول عن الجيم سوى ما قلته .. ذلك هو متنبي زمانه الأعجز الأزعر.

ثم يطلع علينا شاعر آخر فى مجلة إبداع يصف العملية الجنسية بالتفصيل ثم يصف خلق الله لحواء قائلاً:

واتكأ عليها كوع الله

وأحدث ثقباً (يقصد الفرج)

فلا يكتفى بالجرأة علينا وإنما يشفعها بالجرأة على الله بهذا السخف والسفول. ثم رأينا كالعادة من يدافع عن هذا الشعر الجديد ويزعم إن مصادرة هذه الإبداعات عدوان على الحرية. وما هى إبداعات بل هى قاذورات . ولا ينطبق كلامنا على الشعر فقط. بل كل ألوان الفنون، فالفن التشكلى تحول إلى شخبطة وألوان مدلوقة على الورق وأكوام من الزلط والحديد والخردة تحت مسمى النحت، ثم لجان أجنبية مشبوهة تقدم الجوائز على هذا الهراء لتروج له أكثر وأكثر ونسأل الله اللطيف . أ. هـ.

مصادر الإبداع والغيب :

كل ما قيل فى الإبداع ودوافعه وخلفياته وكنهه ما هو إلا مجرد نظريات وفروض، لا تستند إلى حقيقة ثابتة، فالموهبة مثل أى رزق إلهى يُمدكم الله به أيها المبدعون ﴿لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ [الأنعام : ١٦٥] وهو مثل المال والصحة والجاه والسلطان وغير ذلك من أرزاق الله للناس فى الدنيا. والمُسرف فى إنفاق المال سفيه؛ لأنه ينفقه فى غير مرضاة الله قال تعالى: ﴿وَلَا تَوَلَّوْا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾ [النساء : ٥] والذي يصرف موهبته الإبداعية فيما يفضب الله، هو انسان سفيه، ويجب أن

لا تعطيه الدولة واجهزة الإعلام الفرصة لنشر سفاخته فى الإذاعة والتليفزيون والصحف والكتب، فالكلمة لها أثر خطير فى تغيير النفوس، فهى مشتقة من كلم يعنى جرح، انسان مكلوم يعنى مجروح. فكما أن الخنجر والسكين تجرح جسد الإنسان، فالكلمة تجرح نفسه وقلبه، وأثرها واضح وإن كنا لا نلمسه مباشرة. واذكر أن الكاتب الألمانى جيته بعد أن نشر روايته (آلام فارتير) وقراها الشباب انتحر أكثرهم بتأثير الرواية عليهم. والآن لم يصبح الفن كلمة تقرأ بل صوتا مسموعا وصورة مرئية وموسيقى تأثيرية وإحياءات بكل الوسائل المشروعة وغير المشروعة، وأصبح خطر المبدع أكثر أثرا من ذى قبل.

والفنان إنسان يمتلك نفسا قابله للتأمل بفطرتها، وإحساسها بالتميز. تجدها نفسا عصبية طاغية تؤله ذاتها، وهى أكبر ابتلاء للمبدع إذا لم يروضها ويجاهدها ويكبح جماحها وغرورها، فهى تكاد تقول: أنا الله، أنا أخلق وأبدع قصصا وروايات ومسرحيات وفنونا لا تختلف عن العالم الموجود بما فيه ونفس المبدع بفطرتها قابلة بطريقة غير عادية لتلقى الإلهام الملكى والوسوسة الشيطانية. جهاز حساس مهيبا للتلقى والبت. فإذا لم يكن المبدع على بصيرة يستمدّها من إيمانه بالله واعتماده عليه تعالى لا على نفسه، ويعرف من أين يأخذ وكيف يعطى فهو من الهالكين المهلكين. وأصل الإبداع، هو العالم الغيبى والخواطر التى تمر على القلب، وهى أربعة: خاطر إلهى، وخطر ملكى، وخطر نفسى، وخطر شيطانى. ومن لم يفرق بين هذه الخواطر ويعرف علاماتها ذوقا وخبرة، ويبت كل ما يخطر فى قلبه إلى الناس فى شكل أى إبداع، فهو إن أفاد الناس فبالمصادفة ولكن ضرره أكثر

من نفعه فى الغالب. فالمبدع إنسان قابل للوساطة النفسية ولا نقول الروحية، كما يدعى أصحاب مذهب الروحية الحديثة. فهو أقرب ما يكون إلى عالم الجن والشياطين إذا كان عاصيا لله، وأقرب لعالم الملائكة إن كان مطيعا لله. وصدق العرب قديما حين قالوا بوجود شيطان الشعر وإلهام الجن للشعراء. وقصة الشاعر العربى (الأعشى) معروفة:

ففى شرح ديوان الأعشى للآمدي قال الأعشى: خرجت أريد قيس بن معدى كرب بحضرموت، فضلت الطريق، فوقعت عيني على خباء فقصدته وجلست على بابه، فإذا بشيخ أخذ ناقتي وقال أين تقصد؟ ومن أنت؟ فأخبرته أنى أريد قيس بن معدى كرب قال: أظنك قد مدحته بقصيدة فأنشدنيها فقلت:

رحلت سمية غدوة احمالها غضبى عليك فما نقول بدالها
فنادى: يا سمية. فخرجت جارية، فقال لها: أنشدى عمك
القصيدة التى مدحت بها قيس بن معدى كرب . فأنشدتها
ما غادرت منها حرفا ثم قال: هل قلت شيئا آخر؟ قلت: نعم. قلت
قصيدة هجوت بها ابن عمى يزيد بن سهر قال: وما قلت؟ قلت:
ودع هريرة إن الركب مرتحل وهل تطيق وداعا أيها الرجل
فنادى: يا هريرة فخرجت جارية وقالت: نعم يا أبت قال:
أنشدى عمك القصيدة التى هجوت بها يزيد بن سهر. فأنشدتها.
فسقط فى يدي، فلما رأى ما نزل بى قال: أنا صاحبك الذى ألقى
على لسانك الشعر اهـ (١).

وهذه القصة تفسر ما ذكره د. مصطفى عن المتنبي والشعر الحديث العبثى والفن الهابط، فهو نتيجة إلقاء الجن والشياطين فى نفس المبدع وأذكر أن الكاتب السورى (حنا مينا) قال عن نفسه

(١) لقط المرجان فى أحكام الجان. الإمام جلال الدين السيوطى. مكتبة القرآن ص ١٦٠.

فى مجلة الدوحة القطرية: إنه قبل أن يشرع فى كتابة رواية بأيام، يصاب بحالة من الاكتئاب والحزن والضياء، ويميل إلى العزلة ويستوحش من الناس ويهيم على وجهه فى الشوارع ليلا. يظل هكذا أياما ثم يبدأ فى كتابه الرواية. ولا أظن أن هذه هى أحوال الملائكة والأرواح الطاهرة النورانية.

فالنفس المبدعة داء خطير لصاحبها. ودواؤها الاقتراب من الله والإيمان والعمل بما أمر الله به والانتهاى عما نهى عنه. وحبذا لو سلك المبدع سلوكا صوفيا ولو قليلا، حتى تشفى نفسه، ويتمكن من فرز الخواطر ويلقى خاطر الشيطانى جانبا، ويُعرض عنه ويقاومه، ويقبل الخواطر الأخرى من خاطر إلهى وملكى ونفسى، إن ألهم بخير، فهذه حقيقة الإبداع ومصادره، وليس ما قلناه نظرية أو فرضا، بل حقيقة مؤكدة وقد حكى بعض الصوفية واقعاتهم مع الشيطان حيث أملى على بعضهم كتباً كاملة فى السلوك والمعارف، فلما عرضوها على شيوخهم أوضحوا لهم أن هذا إلقاء شيطانى، فقد ذكر سيدنا عمر الفوتى التيجانى فى كتاب (رماح حزب الرحيم) أن الشيخ زين الدين الحوافى قال: دخل أحد أصحابى الخلوة فى خراسان فجاءه الشيطان فى صورة الخضر عليه السلام وقال له: تريد أن يحصل لك العلوم الدنية. وكان صاحبى هذا مائلا لأن يتكلم بالمعارف. فقال له الشيطان: افتح فاك، فرمى الشيطان بزاقه فى فيه. ثم صنف كتابا فى المعارف، فلما التقيت به وحكى واقعة قلت له: يا مسكين. ذلك الشيطان جاءك فى صورة الخضر ولعب بك وشغلك عن طاعة الله وذكره. اهـ^(١).

(١) رماح حزب الرحيم على هامش كتاب جواهر المعانى. الشيخ عمر الفوتى ط مكتبة الحلبي ١٩٦٣ ص ١٢١.

وحدث نفس الأمر للشيخ نجم الدين كبرى لكن لم يكتب إلا بعد عرض الواقعة على شيخه، واكتشف أن الإلقاء كان شيطانياً، وكذلك حدث نفس الشيء للشيخ محمد مهدي الرواس الرفاعي، وكان الذي خلصهم من إلقاء الشياطين هم شيوخهم، وهؤلاء يا أخى شيوخ أجلاء، ولم يسلموا من إلقاء الشيطان، فما بالك بالمبدعين، الذين يجهلون هذا الأمر تماماً ويعتبرونه خرافة. وليس عندهم أدنى معرفة به، وفيما ذكرناه كفاية لمن أراد الهداية.

والله تعالى لم يعط الموهبة الإبداعية للكاتب عبثاً، بل الكاتب مطالب بتصريفها فيما يرضى الله. فلا تحسب أيها المبدع أن موهبتك من عندك وتفعل بها ما تشاء وتقول كمن قال الله فيه: ﴿إِنَّمَا أُوتِيَتْهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ [القصص : ٧٨] فموهبتك من عند الله، وأنت محاسب عليها يوم القيامة فإن صرفتها في رضا الله فهي لك، وكل من اهتدى بكلامك فهو في ميزانك يوم القيامة، وإن صرفتها في غضب الله فعليك وزرها ووزر من عمل بقولك. فانتبه واحذر الشيطان والنفس الأمارة، وكان الله في عونك.

الإبداع والمرض النفسي:

في حوار مع د. أحمد عكاشة أستاذ الطب النفسي والمشهور في جريدة الأهرام (ملحق الجمعة ٣٠/٥/١٩٩٧ ص ٣) قال: إنه أشرف على دراسة دامت خمس سنوات. أكدت أن المبدعين من البشر من كُتَّاب وشعراء وموسيقيين. معظمهم يعانون من أمراض نفسية وبالذات الاكتئاب الابتهاجي الذي يؤدي إلى الانتحار، وقد نوقش هذا البحث أمام المؤتمر الأوروبي للطب النفسي، المنعقد في جنيف الأسبوع الماضي في الندوة الخاصة بالإبداع والمرض النفسي، أجريت الدراسة على ٦٠ من المبدعين الأحياء، وبعض

الراجلين، ووجدت الدراسة أن الاكتئاب الذى يصيب ٦,٥٪ من الشعب، ويصيب الكتاب بنسبة ٤٠٪ والمبدعين تزيد عندهم الاضطرابات المزاجية والانتحار عشر مرات أكثر من مجموع الشعب، وثلاث كتاب القصة يُعطون تاريخاً للتقلبات المرضية، وثلاث المبدعين قد تلقوا علاجاً لأمراضهم النفسية، ويعتقد بعضهم أن المرض النفسى أحد مكونات الشخصية الإبداعية وأن هذا قدرهم. والاكتئاب الابتهاجى يصيب ٤٢٪ من الكتاب و ٥٠٪ من الشعراء وهو مرض عبارة عن نوبات اكتئاب يعقبها نوبات ابتهاج وانبساط ومرح تتميز بالنشاط والعظمة والغرور وكثرة الكلام والصراحة الزائدة وتطاير الأفكار والنطق بالفاظ غير لائقة. وانتهى البحث بافتراض وجود علاقة بين الموهبة والإبداع الفنى وبين الأمراض المزاجية، وبعض المبدعين أنها حياتهم بالانتحار مثل ارنست هيمنجواى والرسام فان جوخ. والمبدعون يعتقدون أنهم لو عالجوا أنفسهم فلن يستطيعوا الإبداع وأن معاناتهم النفسية جزء من تكوينهم الفنى.

هذا ملخص ما قاله د. أحمد عكاشة.

وصية لإخواننا المبدعين:

نقول: ما زالت أسباب الأمراض النفسية مجهولة، وليس من باب الخرافة والجهل كما يظن أصحاب القلوب التى رانت عليها الذنوب أن تُرجع أسباب هذه الأمراض لهيمنة الجن والشياطين على نفس المبدع والاستحواذ عليه. وما ذكره المرحوم الدكتور رؤوف عبيد فى كتابه (الإنسان روح لا جسد) عن السيدة التى كانت تنطق بقصائد الشاعر أحمد شوقى، وهى ربة بيت عادية. ليس لها حظ من معرفة الشعر، وأنه عرض هذه القصائد على

أساتذة النقد الأدبي المتخصصين فى دراسة أمير الشعراء أحمد شوقى فأكدوا أنها من أشعاره التى لم تنشر، وأخبرهم بعد ذلك بمصدر الشعر فبهتوا وقال د. عبيد إن روح أحمد شوقى هيمنت على هذه السيدة القابلة للوساطة الروحية، ونطقت بالقصائد على لسانها، حسب مذهبه.

يعلق د. محمد محمد حسين فى كتابه (الروحانية الحديثة دعوة هدامة) بيروت - ١٩٨١ م. قائلاً: إن الشعر الذى ذكرته هذه السيدة هوركىك العبارة تافه المعنى، لا تضع نسبته لأقل الناس حظاً من الموهبة الشعرية، وقد قالت قصيدة على لسان شوقى (المظلوم حياً وميتاً) تبث الفرقة بين العرب وتكيد لهم. ص ٢١ من الكتاب المذكور.

ونقول إن صحتَّ القصة، إن الذى املى عليها القصائد ونطق بلسانها هو قرين أحمد شوقى، والقرين كما هو معروف شيطان وليس روحاً، فالروح لا تحضر بهذه البساطة. فهى فى البرزخ إلى يوم البعث.

ويعلم الله، أننا نقول هذا الكلام، من منطلق حرصنا على نجاة بعض المبدعين مما هم فيه من ضلال وهم لا يشعرون بذلك، والمؤمن مرآة المؤمن. ولا نضمر لهم فى قلوبنا إلا كل خير، وندعو لهم بالهداية الكاملة، فليس كلامنا من باب الاتهام والتشهير وتنفير الناس من قراءة إبداعهم. فإنهم قوة لنا ويمتلكون القدرة على إصلاح المجتمع، وجمع شمل الأمة، وكلهم فى مقام آبائنا وإخواننا وأولادنا ونكن لهم الحب والشفقة والرحمة، ونتحدث إليهم من منطلق النصيحة والتبصير بالحقيقة، وإن كنا غير مؤهلين لهذه المهمة ولكن حالنا كما قال الشاعر:

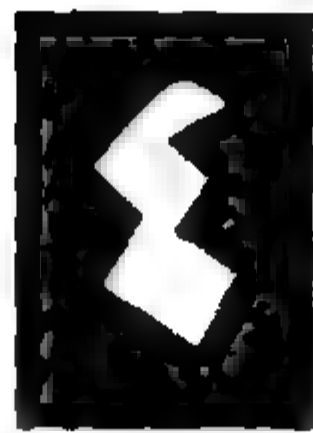
والنصح مطلوب لأمة النبي فاسمعه من عبد مسيء مذنب
فالمبدع قد أكرمه الله بثروة روحية هائلة، والروح تُحن إلى
عالم النور، ولكن المبدع يجذبها إلى عالم الظلام والمادة والتشتت
والكثرة، وهي تجذبه إلى عالم المعاني النورانية، وهذا سر الصراع
الذي يعيشه صاحب الموهبة الصادق، وليس المدعى للموهبة الذي
يصطنعها ويتكلفها. فهذا لا يشعر بأي صراع أو عذاب.
ودواء هذا المبدع القلق المعذب الحائر، هو اللجوء إلى الله،
وتنمية نزعة الإيمان وتقويتها في قلبه. باتباع المنهج الإلهي واتباع
الكتاب والسنة ولو وفقه الله لسلوك الطريق الصوفي لكان أتم
وأكمل. حيث يستطيع معرفة مصدر الإلهام. فيقوم بالدور الذي
اختاره الله له على أحسن وجه. ويخرج من دائرة الحيرة
والالتباس والألم النفسى الرهيب الذي لا يعانيه إلا المبدع، وندعو
الله لجميع المبدعين بحسن الخاتمة.

2.



د. مصطفى محمود

والتصوف



البصائر
الصوفية
في حياته

كى نسهل على القارئ هذا الموضوع نذكر له
حياة د. مصطفى محمود.

حياة د. مصطفى محمود فى سطور:

- وُلد فى شبين الكوم فى ٢٧ / ١٢ / ١٩٢١.
- قضى مرحلة الدراسة الابتدائية والإعدادية

والثانوية بمدينة طنطا.

- التحق بكلية طب قصر العيني وتخرج عام ١٩٥٢.
- تخصص فى أمراض الصدر ومارس الطب فى مستوصف
للصدر بمصر القديمة ثم استقال عام ١٩٦٠ وتفرغ للكتابة.
- صدر له أول كتاب. مجموعة قصصية (أكل العيش) ١٩٥٤،
ثم كتاب (الله والإنسان) ١٩٥٦ وهو مجموعة مقالات كتبت فى
عام ١٩٥٥ ونشرت، وانتهى الكتاب إلى المصادرة ومحاكمة
الكاتب.

- مُنع من الكتابة بعد مقالته (هتلر والنازية) التى نشرها فى
صباح الخير. بأمر السلطة الحاكمة. واعتكف فى بيته عاما كاملا
مشتغلا بتأليف عدة مسرحيات.

- تعاطف مع الفكر المادى فى بداية حياته الفكرية، لكنه
لم ينتظم فى أى حزب شيوعى أو غيره ولم يكن يوماً ما ملحدًا
أبدا كما اشتهر هذا عنه عند عامة الناس، وأشاد به كُتَّاب الماركسية
ولما تنكَّر لمذهبهم وعاد إلى الصواب قالوا عنه مجنون، هكذا من

زعيم للإبداع وتشيكوف عصره إلى رجل (أهبل) حدث هذا في أيام، وهذه أخلاق الماديين الاشتراكيين، فلا تتعجب.

- ذهب إلى مؤتمر آسيوى أفريقى فى تنجانيقا حين كان يعمل فى مجلة روزاليوسف وترك المؤتمر وأخذ يتجول فى قارة إفريقيا وكتب عن هذه الرحلة كتاب (الغابة) ١٩٦٣.

- ذهب إلى أوروبا فى مجموعة سفرىات ما بين عام ١٩٥٦ حتى عام ١٩٦٨ كتب عنها كتاب حكايات مسافر ١٩٦٨ م.

- سحب الصوفية وأخذ العهد على يد الشيخ محمد منذور النقشبندى فى مكة عام ١٩٦٦ م تبركا.

- قام برحلة إلى ليبيا والجزائر والنيجر، كتب عنها كتاب (مغامرة فى الصحراء) ١٩٦٩ م.

- حاز على جائزة الدولة التشجيعية فى الأدب عن فن الرواية عن روايته رجل تحت الصفر ١٩٧٠ م.

- عرض عليه الرئيس السادات عدة مناصب تتعلق بالثقافة فرفض لأنه أدرك أن تولّى هذه المناصب سيقضى عليه ككاتب ومبدع.

- قام فى السنوات الأخيرة بتأليف كتبه المشهورة باسم (مجموعة الصراع العربى الإسرائيلى) منها على سبيل المثال: الإسلام السياسى، الإسلام فى خندق، على حافة الانتحار وغيرها. وفاز منها كتاب على حافة الانتحار بجائزة أحسن كتاب فى العالم العربى عام ١٩٩٥ ثم فى العام التالى ١٩٩٦ فاز كتاب زيارة للجنة والنار بجائزة أحسن كتاب فى العالم العربى أيضا.

- حاز على جائزة الدولة التقديرية فى الآداب عام ١٩٩٦.

- تزوج. وله بنت (أمل) خريجه كلية الآداب متزوجة ولها

ولّدان أحمد ومحمود، وله ولد (أدهم) خريج كلية التجارة.
- يعيش الآن في شقة متواضعة. ملحقة بأعلى مسجد محمود
بالمهندسين والذي يضم مركزاً إسلامياً متكاملًا.
- وظّف قلمه للدفاع عن الإسلام في سماحة ويسر واعتدال
وكشف الدسائس والمؤامرات الدنيئة التي تُحاك للمسلمين في
الداخل والخارج وحاول تقريب مفهوم التصوف لعامة القراء في
الداخل.

- حمل على عاتقه فكرة وتنفيذ أشهر برنامج تليفزيوني هو
(العلم والإيمان) وقام وحده بعصامية نادرة، بالحصول على
الأفلام من السفارات الأجنبية في مصر، لمدة أربع سنوات، ولما
نفدت هذه الأفلام سخر الله له بعض شركات الإنتاج الإعلامي،
وتبنت البرنامج ويعتبر تعثر إذاعته الآن خسارة كبيرة للتلفزيون
والشاهدين الأسوياء الذين فقدهم التلفزيون. وسجل منه
٤٠٠ حلقة.

ولنبداً بذكر البصمات الصوفية في حياته:

فنقول: لا معنى لحياة الإنسان ولا قيمة لوجوده إذا اقتصر
حياته على التكرار المتعدد، دون تغيير وتفرّد، ودون أن يصل إلى
معرفة الله تعالى، وتحقيق العبودية له سبحانه، ونقصد بتعدد
التكرار، تشابه الساعات والأيام والسنين. وتشابه الأفراد من
حيث نمطية الحياة. فتكون أنت مثل الآخر. لا فرق: ولادة، طفولة،
تعليم، مهنة، زواج، إنجاب أولاد وأحفاد. ثم الموت. عبودية لرغبات
الجسد من أكل وشرب ومتع دنيوية زائلة، وهذه ضرورات لا بد
منها، بل أصبحت غير متوافقة لأغلب الشباب في أيامنا هذه.
ونحن لا نقلل من شأن هذه الأمور، فهي هيكل وجود الإنسان،
ولكن الخطر يكمن في الغفلة عن الله وأن تكون هذه الأشياء هي

كل محور الحياة، ثم لا شيء بعدها. والملل والتكرار الذي يعيشه الناس، لا وجود له إلا في العالم المادي، وحتى العالم المادي لا تكرر فيه، فهو من أثر تجليات الله، والله تعالى لا يتجلى مرتين متماثلتين في أقل من الثانية الواحدة. وتجلّيه على الإنسان يتغير من نفس إلى نفس، وانظر إلى قلبك وما يجري فيه من خواطر، تجد أنها تيار سريع جدا من الصور لا تستطيع ضبطها لحظة. وهكذا كل شيء في العالم إذا ادركته البصيرة قال تعالى: ﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [ق: ١٥] فالخلق الجديد حادث في كل لحظة ولو ظهرت قلبك ومحوت منه صور الكون بالذكر والعبادة الشرعية، لنزلت فيه الصور النورانية والمعاني والعلوم العرفانية، ووجدت تغييراً وسعادة وابتهاجاً معنوياً أكثر بكثير مما تحلم به وأنت جالس في غرفتك ولو كانت متراً في متر. ستجد أن العالم كله عندك، لأنك نسخة من العالم. كما قال ابن العماد في كتاب كشف الأسرار عن الإمام الدريني:

وفيك سرُّ نسخة الوجود فانظر فأنت أقربُ الشهود

ولا تحتاج إلى ما يكسر الرتبة والملل والفراغ؛ لأنها أمور موجودة في وهمك، نتيجة غفلتك وجهلك. ولكن أين هذا الإنسان؟ هذا الأمر لا يأتي إلا بعد جهاد شاق، وقتل النفس ألف مرة، وهو مقام لا يحدث إلا لأفراد معدودين، ولكننا نذكره تحفيزاً للهمم. وتعريفاً بالحقائق، لعل هذا الكلام يقع في قلب إنسان مستعد لذلك، فيعمل به.

وياليت محور الحياة الضروري هو الذي يشغل الناس فقط، بل الأدهى والأمر، أن الناس اشتغلوا بتفاهات وسفاسف الأمور وصار الجد لعباً واللعب جداً، وأصبحت مجالس الخلق كلهم عبارة عن حديث فارغ عن الدنيا لا يتعدى المطالب الحيوانية. وأصبحت

العبادات من صلاة وصيام وزكاة وحج طقوساً آلية خالية من روح العبادة، يفعلها الناس بحكم العادة.

ومن أراد سلوك الطريق إلى الله، تسلطت عليه شياطين الإنس والجن؛ الشياطين بوسوستهم، والإنس بمشاكلهم التي لن تنتهى لأنها كامنة فى نفوسهم، وهم لا يحاولون تغيير هذه النفوس. فيفقد السالك هدفه، ويضيع فى دوامة هؤلاء الغافلين. سألت إمامنا محمد زكى إبراهيم عن حل لمشكلة إشغال الناس للسالك وتضييع وقته والهجوم عليه فى أى لحظة. وكان وقت الإنسان مثل التراب ليس له قيمة.

فأجاب: إذا وجدت لهذه المشكلة حلاً فأخبرنى به فأنا فى حاجة إلى هذا الحل.

وما ذكرت لك ذلك الكلام، إلا لأنك ستجده فى كتابات د. مصطفى محمود بالتفصيل، ويطلق د. مصطفى على هذا الصنف من الناس (الدشت البشرى) والخروج من عفن هذا الدشت يكون بسلوك طريق الله، وهو سهل لمن يسره الله له ومستحيل لمن عسره الله عليه، والتيسير أو التعسير يبدأ من الإنسان نفسه، ويمده الله حسب نيته واستعداده، يقول تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ وَاتَّقَى (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (٦) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى (٧) وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى (٩) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى ﴾ [الليل: ٤ - ١٠] فلكم نفسك فأنت السبب.

١ - البداية :

بدأ الدكتور مصطفى حياته، طفلاً ضعيف البنية. فقد ولد توأماً وتوفى شقيقه بعد أيام، فكانت الأمراض تتوالى عليه، وهكذا بدأ البلاء يصاحبه منذ النفس الأول من حياته، وهى علامة من علامات العناية الإلهية والابتلاء الخاص تصاحبه الرعاية الإلهية

الخاصة، فلم ينهمك د. مصطفى مثل أقرانه في اللعب واللهو والشقاوة، بل كان يجلس دائما وحيدا متأملا حالما بان يكون له شأن في المستقبل، عالما، مخترعا مُفكراً... الخ وعاش طفولته في شبه انطواء.

ومن البصمات الصوفية أنه نشأ في أسرة فقيرة في الظاهر غنيّة في الباطن من بركة وأنفاس والده الطيّب. قال لي: كان والدي يعمل مُحضرا في محكمة بطنطا مرتبه ٨٠ قرشاً، ولكن البركة كانت تسري في هذا المبلغ القليل.

٢ - السلالة النبوية الطاهرة:

أخبرني د. مصطفى أنه ينتسب إلى أهل البيت، أثناء حديثي معه عن التصوف، ولم يقل أكثر من هذا. ولم أسأله عن التفاصيل بل قلت: أنت حسنى أم حسينى فقال: حسينى.

وكان الله تعالى أمسك لساني عن الكلام. وذات يوم وأنا أعمل في عيادتي، في شهر يونيو ١٩٩٧ وبعد أن انتهيت من عملي دخل على رجل من أهل الطرق الصوفية، لم أره منذ ثمانى سنوات تقريبا، وجلس وأخذ يتحدث عن أهل البيت ونقابة الأشراف في مصر ثم قال فجأة: هل تعلم أن د. مصطفى محمود من أهل البيت؟ فأخذت وأصابتنى دهشة أخفيتها وقلت: ولماذا ذكرت د. مصطفى محمود بالذات؟ قال: أبدا خطر ببالى الآن. وأنا أحفظ نسبه مسلسلا إلى الرسول (ﷺ). قلت: اذكره لي فأملئ على وأنا أكتب:

(د. مصطفى كامل) اسم مركب، بن محمود بن حسين بن الحسين بن عبد الله بن حمد بن علي بن عمر بن نصر الله بن هديب بن مالك الدار بن ناصر بن عبد العال بن محمد محفوظ بن حماد بن محمد طوق بن جعفر بن محمد بن الأمير حمد بن محمد

الناصر أبى جعفر بن يوسف بن إبراهيم بن عبد المحسن بن حسين المغربى (دفين قاس) بن محمد بن موسى بن يحيى بن عيسى بن على الثقفى بن محمد الهادى ابن الحسن العسكرى بن على الهادى بن محمد الجواد بن على الرضا ابن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن على زين العابدين بن الحسين ابن على بن أبى طالب زوج السيدة فاطمة الزهراء بنت رسول الله ﷺ.

وحين هم الرجل بالانصراف قلت له: هل تعلم أنى أقوم بإعداد كتاب عن د. مصطفى. فقال ضاحكا: شوف يا أخى الصدفية الغريبة .

وبعدها عدت إلى د. مصطفى وراجعت معه تسلسل هذا النسب الشريف فقال: هو كما قلت، لم ينس الرجل اسما واحداً. وكانت هذه الحادثة من الأمور غير العادية، وأهل الله يطلقون عليها ألفاظاً أخرى، لكننا نتحدث لعامة الناس، فلا داعى لإدخالهم في متاهات. وقد سألنا الرسول ﷺ المودة لقربته ﷺ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى ﴿[الشورى: ٢٣]﴾ كما قال ﷺ لابنته فاطمة رضى الله عنها: اعملى يا فاطمة فإنى لن أغنى عنك من الله شيئاً. وأهل الله العارفون يعرفون أهل البيت بمجرد رؤيتهم. وذكر الإمام الشعرانى فى (المنن) أنه يعرف صوت الشريف بمجرد سماعه دون أن يراه.

ولكننا للأسف نرى بعض الناس يعلنون انتسابهم لأهل البيت زوراً، وهؤلاء الله حسيبهم والنبي حسيبهم، وقد أعلن صدام حسين أنه من أهل البيت. والله أعلم بحقائق الأنساب. وقد أخبرنى شيخى المرحوم محمد شهاب الرفاعى أنه طالع بعض شهادات الانتساب لأهل البيت فوجدها غير صحيحة لسبب بسيط،

وهو أن عدد الأسماء المتسلسلة لا يتفق مع الزمن والتاريخ، ولا نقول هذا الكلام للتشكيك فيمن يدعى الانتساب لأهل البيت، ولكن من باب الحيطة، فنحن في زمان يتاجر فيه الناس بأى شىء. وانتشر الكذب والتزوير. وللشيخ الأكبر ابن عربى باب في الفتوحات المجلد الأول ص ١٩٥. دار صادر بيروت ذكر فيه السر الذى يلحق الولى بأهل البيت وأقطاب هذا المنزل وأسرارهم ومعارفهم وعلومهم والسر الذى ألحق سلمان الفارسي بأهل البيت، ولولا أننا وضعنا هذا الكتاب لعامة الناس جريا مع ما يراه د. مصطفى محمود لذكرنا طرفا من الحقائق والأسرار التى باح بها الشيخ بالإشارة والأسماء، فمن أراد معرفة المزيد عن هذا الموضوع فليرجع إلى الباب الذى ذكرنا فى الفتوحات المكية.

٣ - الأب :

ومن البصمات الصوفية فى حياة كاتبنا وجود والده وتأثيره فى مسيرة د. مصطفى. فكان قدوة لولده.

قلت للدكتور مصطفى: حدثنى عنه.

قال: لم يكن مثقفا ولا مطلعاً على النظريات الحديثة فى علم النفس والتربية، ولكنه كان يجيد اللغة الفرنسية بطلاقة، كان رجلاً بسيطاً باطنه عامر بالإيمان العميق، وحب الله، والحب الفطرى للخير والرحمة، والتسليم والتفويض والرضا. ونشأ د. مصطفى فى كنف هذا الوالد الذى كان يتخلق بأخلاق الأولياء.

سألته: لقد ذكرت فى كتاب (القرآن- محاولة لفهم عصرى) أنك كنت متعثراً فى دراستك الابتدائية، وكان الصف الأحمر يزين كراساتك، وأنت رسيت ثلاث سنوات فى السنة الأولى، فماذا كان موقف والدك؟

قال: لم يكن رسوبى نتيجة قصور ذهنى وبلاغة، بل كان

نتيجة الإرهاب والضرب والخوف من المدرسين. أما والدي فكان الأمر عادياً جداً عنده، ولم يعتقني على ذلك أبداً. ولذلك يكره د. مصطفى طريقة التربية المبنية على البرمجة، وحشو أذهان الأطفال بالأفكار المفروضة عليهم (بالعافية) وجعلهم آلات تتحرك في صف واحد، حتى غرس التدين، يجب أن يكون في قلوبهم وبالتدريج والملاطفة والإقناع الهادئ واللجوء والتضرع إلى الله في إصلاحهم. فإله تعالى بيده مقاليد كل الأمور، وهذا يا أخي شأن أهل الله في تربية أولادهم، اتخاذ الأسباب ظاهراً واللجوء إلى الله باطناً. وهذا الذي يعول عليه في هذا الأمر.

يقول الإمام الشعراني :

«من أخلاق القوم كثرة تفويضهم إلى الله في أمر أولادهم فلا يكون معولهم في أمر هدايتهم إلا عليه. ولا يطلبون شيئاً بأنفسهم وهم غائبون عن الاستناد إلى الله. وكان لي ولد ليس له رغبة في طلب العلم. وكنت في تعب عظيم من جهته، فألهمني الله أن أفوض الأمر إليه، ففعلت، فأصبح من تلك الليلة يطالع في العلم بنفسه وحلاً له العلم بطريقة غريبة، من غير أمرى له بذلك» اهـ. (١).

وهذا التصرف يكون لأهل الله، وليس لكل واحد غافل مُنكَبٍ على الدنيا، فأهل الله يأخذون بالأسباب ويعلمون أن الله هو الفاعل عندها، فهم يعبدون الله، وغيرهم يعبد الأسباب.

وكان والد كاتبنا يسير في حياته على الاعتماد على الله أولاً والأخذ بالأسباب ثانياً، فلم يرغم ولده بالقوة على ما لا يريد. ومصادقاً لما يراه د. مصطفى في خطأ المناهج التي تفرض الأفكار بالقهر، نرى حولنا أطفالاً كانوا يرددون بألسنتهم في سن الرابعة

(١) تنبيه المفترين - الإمام الشعراني ط المكتبة التجارية بدون تاريخ ص ٧.

أو أقل أدعية الصباح والمساء الواردة في السنة. ويحفظون بعض الأحاديث. بل كان بعضهم يعتكف في المسجد في الثامنة من عمره، وذلك بالضغط والأوامر المشددة من الأسرة، أو من المدارس التي اتخذت الدين مظهرًا لا أكثر، ولما تقدمت السن بهؤلاء الأطفال، تغيرت أحوالهم إلى النقيض. ويئس آباؤهم من إصلاحهم بعد ذلك، ونحن لا نهون من تعليم الأطفال الدين وتنشئتهم تنشئة دينية، لا يتبادر إلى ذهنك هذا، ولا نقول به أبدا. فقد أمرنا الرسول ﷺ أن نأمر أولادنا بالصلاة لسبع ونضربهم عليها لعشر.. ولكن يجب أن يصاحب ذلك، التربية القلبية الباطنة، والاعتماد على الله، وعدم الفرح بالأطفال حين يرددون الأذكار بلسانهم في سن مبكرة، بل ينطبق هذا على الكبار أيضا، فالدين ليس مظهرًا فقط، فأساسه وجوهره القلب والتخلق بالأخلاق النبوية، فالرسول (ﷺ) هو أسوتنا. فلماذا نقلده في طعامه وشرابه وردائه، ونترك مثلا قيام الليل حتى تتورم أقدامنا، ونزهد في الدنيا، ونتواضع، ونأخذ بشدائد الأعمال . فهي أساس البناء الديني. كان عمنا محمود قدوة لولده في صمت. كان زاهدا في الدنيا، راضيا بالقليل ، ليس هذا فقط، بل كان يدفع من هذا القليل لأصحاب الحاجة.

يحدثني عنه د. مصطفى فيقول:

لم يسلك والدي طريقة صوفية على يد شيخ لكنه كان رمزا وصورة حية للولاية الكاملة، ورغم علمي وثقافتى فأنا أرى نفسى بجانبه مثل قطرة في بحر أو حصاة بجوار هرم كبير، كان فقيرا، أول مرتب له كان ٨٠ قرشًا، فكان يحتفظ لنا بـ ٦٠ قرشًا ويوزع الباقي على أقاربنا الفقراء، وأذكر أنه كان يمشى على قدميه

ساعتين وأكثر ليذهب إلى عمتي وأحد أقاربي، ليعطيهم قروشاً أو شللاً. يفعل ذلك في أول يوم يأخذ فيه المرتب. وكان يعمل ختمة تلاوة القرآن في بيتنا كل شهر، ومرض بالشلل مرتين، وفي المرة الأولى كان لا يتكلم وشفاه الله بعد عملية فصد، وقام في الحال. تتصور أول كلمة نطقها كانت إيه؟ قلت: الحمد لله؟ قال: لا قلت: قال أشكرك ياربى على الشفاء؟ قال: لا، قلت: ولا هذه، أول ما نطق قال: كده يارب تمرضنى قبل ما أقضى فريضتك. قبل ما أحج إلى بيتك، وسافر إلى الحج. وحج حجة عظيمة كان يحلم بها، وحدثنا عنها بعد عودته، ثم أصيب بالشلل مرة أخرى وكان يتكلم في هذه المرة، ولم ينقطع عن الصلاة وهو ملازم الفراش. وكان يزوره رجل صالح اسمه الشيخ على، فيقول له: يا محمود لا تتعب نفسك، أنت مريض.. التكليف سقط عنك.. فكنت أسمعته وأنا خارج الغرفة، يرد عليه بصوت عال: لا تقل هذا، التكليف لا يسقط عني أبداً، وذلك من شدة حبه وخدمته وعبادته لله تعالى. لم يشك من المرض أو يتألم أو يضجر ولو مرة واحدة، بل كان دائم الابتسام كأن المرض الذى به أصاب غيره.

وكان أكبر مرتب حصل عليه ٢٠ جنيهاً، وكنا أسرة كبيرة، عدد أفرادها يحتاج إلى أضعاف هذا المرتب. إلا أننا كنا نعيش في رغد من الحياة ناكل ونلبس كل ما نريد. لا أعرف كيف كان يحدث هذا؟ ولا أقول إلا أن السبب كان بركة والدى وصلاحه ورضاه بقضاء الله، لذلك تجدنى أحتفظ له بذكرى طيبة دائماً، وأعتز به. وأضعه مثلاً أعلى لى، فترى هنا فى المركز الإسلامى، كل شئ باسمه، مسجد محمود، مستشفى محمود.

وسرت الأنفاس المباركة لهذا الرجل الصالح فى ولده د. مصطفى وانطوت فى باطنه حتى أذن الله لها بالظهور.

٤- صحبته للصوفية:

صحبة أهل الله، هي الركن الكبير في الاقتراب من التصوف، فهم أطباء القلوب، وأجمع أهل الله، أنه بدون هذه الصحبة يظل الإنسان في مرتبة النفس اللوامة، ومهما جاهد نفسه لا يتعدى هذه المرتبة، فأمراض القلوب خافية جداً، والنفس مخادعة ومراوغة، وربما تحث الإنسان على كثرة العبادة لتزداد شهرة وتكبيرا على أبناء جنسها، وهذه الصفة في النفس تستند إلى حقيقة إلهية يعرفها أهل الله، فلا بد من صحبة القوم كي يتخلص الإنسان من أمراضه القلبية. ولا يعول الواحد على ظاهره، وهنا سر الحديث النبوي « إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة.. فيسبق عليه الكتاب... إلى آخر الحديث » ولم يقل الرسول ﷺ بعمل يدخله الجنة، بل يعمل بعمل أهل الجنة ظاهراً لكن باطنه خراب، وقلبه ممتلئ بحب الدنيا، والغرور، والعجب والكبر، إلى آخر هذه الصفات المهلكات. فلا نجاة إلا بصحبة أهل الله.

وقد صحب د. مصطفى محمود الشيخ محمد مندور النقشبندی وأخذ عليه العهد، والتزم بالذكر القلبي حتى الآن، ويقول عن نفسه: أنا لست من السالكين؛ فسلوكي قليل، وأكثر معارفي مصدرها القراءة في التصوف.

سألته: ألم يفتح الله عليك ببعض الفتوحات التي تقرأ عنها في كتب القوم؟

قال: لا ... يمكن أن تقول إن الله أكرمني بالرؤى والمبشرات الصادقة، وليس أكثر.

ونكرر إذا كان هذا حال المحب للتصوف، فكيف يكون حال السالك والذائق للفتوحات والمقامات والمعارف والعلوم الدنية؟ وسوف نتعرض للطريقة النقشبندية بتعريف موجز في الفصل الخاص بالتصوف الخالص.

٥- الابتلاء بالمرض الجسدى:

الابتلاء بالمرض، أكبر تطهير لنفس السالك، ذكر البخارى فى صحيحه فى كتاب المرض الأحاديث التالية:

(أ) عن أبى هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: من يرد الله به خيراً يُصِبْ منه.

(ب) عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب (والنصب هو التعب، والوصب هو إصابة البدن الدائمة - الزمخشري - أساس البلاغة) ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياها.

(ج) عن عائشة رضى الله عنها قالت: ما رأيت أحداً أشد عليه الوجع من رسول الله ﷺ.

ويقول د. مصطفى محمود:

دون أن أدخل معك فى تفاصيل المرض الذى لازمى طوال حياتى، أقول: أجريت لى ٢٢ عملية جراحية منها ٧ كبرى كان يمكن أن تؤدى إلى مضاعفات خطيرة، ولكن الله تعالى لطف بى، أقرب العمليات كان منذ عام فقط.. وأصابتنى عدة أمراض وأنا فى السنة الثالثة فى كلية الطب، ودام هذا المرض أربع سنوات، لازمت الفراش فى حجرتى لا أبرحها وتخرج زملائى وأصبحوا أطباء، وهذه السنوات هى التى صنعتنى كما ترانى الآن، وبعد تخرجى بفترة أصابنى مرض الإسهال، إسهال غريب احتار الأطباء فى تشخيصه وعلاجه.. وصل الأمر بعد فحوص كثيرة إلى إجراء عملية استكشاف للبطن، ولم يجد الأطباء أى آثار مرضية وقال لى الطبيب: أمعاؤك زى الأماظ، وظللت عاما أو أكثر أعيش على الموز والسّمك فقط ولا أتناول أى طعام آخر، ولكنى أحمد الله تعالى

على كل حال، وأتذكر والدي الذي أصابه الشلل ٧ سنوات متواصلة ولم يسخط ويضجر بل كان دائم الابتسام. والمرض للإنسان الطائع المتبع للكتاب والسنة من علامات الحب الإلهي، والتعرف الخاص، يقول ابن عطاء الله في «حكّمه» : «إذا فتح الله لك وجهة من التعرف فلا تبال معها إن قلّ عملك؛ فإنه ما فتحها لك إلا وهو يريد أنه يتعرف إليك، ألم تعلم أن التعرف هو مورده عليك، والأعمال أنت مهديها إليه وأن ما تهديه إليه مما هو مورده عليك».

وابن عطاء الله من شيوخ د. مصطفى المستورين، أي الذين أثرت فيه معارفه الروحية، ومعنى حكمة ابن عطاء، وهي من جواهر الحكم أن الله تعالى إذا أراد بعبد خيراً، وجذبه للتعرف ومقام العبودية، فليهنأ العبد بهذه العناية التي لا يشعر بها أغلب الناس، وغالباً ما تكون واردات الله للعبد الخاص، هي سطوات الجلال الإلهي، وإصابة العبد بالبلايا والشدائد والأمراض، التي تنقص عليه لذات الدنيا، وتمنعه من تكثير أعمال البر والعبادات، وهذه البلايا تخلص الإنسان من أخلاقه الذميمة وصفاته اللثيمة، بعكس العبادات؛ فقد تدخلها الآفات من الغرور والعجب، وفرق كبير بين وارد الله الذي يجذبك به إليه وواردات العبد التي يسعى بها إلى الله تعالى، فأين حكمة الله من تدبيرك القاصر؟ ندعو الله تعالى أن يكون مرض كاتبنا، من أوجه التعرف التي أوردها الله عليه، وهي كذلك إن شاء الله.

ولعلنا جميعاً شاهداً حلقة العلم والإيمان التي عرض فيها د. مصطفى قصة إصابته بحصوة ضخمة في الكلى، واستعد لاجراء العملية، ولجأ إلى الله بالدعاء، فنزلت الحصوة مطحونة كالدقيق، وما كانت أدق أجهزة الليزر وتفتيت الحصوات، تقدر

على ذلك، ولكن الله أكرم عبده المضطر حين دعاه، وشفاه دون تدخل جراحى.

٦- أذى الناس:

قال الحسن البصرى: «لو اغتبت أحدا، لكان أمى وأبى أحق الناس بذلك؛ لأنهما أحق الناس بأخذ حسناتى، فمن اغتابك يا أخى، أو ظن فيك سوء وهو يعلم يقينا أنك بريء من ذلك، فهو يهدى إليك حسناته، ويتحمل عنك سيئاتك، وتتمنى يوم القيامة لو أن جميع الناس أساءوا إليك فى الدنيا، فهم المفلسون وأنت الثرى فما يسلط الله الناس على العبد الصالح عبثا، ولكن ليوحشه منهم فينفرد إلى الله ولا يركن لأحد من الخلق ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الإنس والجن ﴾ [الأنعام: ١١٢] وهذه الآية تنسحب على أهل الله لأنهم ورثتهم.

وقد أذى د. مصطفى محمود من جميع الطوائف وأصحاب أغلب المذاهب، وهذا أمر غريب، هاجمه الشيوعيون، ومنعته السلطة الحاكمة عاما كاملا من الكتابة والعمل، فظل فى بيته يرتزق مما تدر عليه مؤلفاته التى حققت توزيعا جيدا.

ويقول د. مصطفى محمود عن المرخوم الإمام محمد الغزالي فى كتاب (على حافة الانتحار): كان بالنسبة لى أخا ووالدا ومعلما، ودليلا إلى الخير، وكان يبكى لما يجرى على المسلمين من ويلات كأنهم فلذات كبده، كان ودودا رقيقا وديعا خيرا، ونورا فى ليل هذا الزمان. ولا يختلف اثنان على الشيخ محمد الغزالي فقد كان من أكبر الدعاة المعتدلين الأذكياء العلماء بحق، ومن الأصوليين والسلفيين، والإخوان المسلمين، ورغم شهادة د. مصطفى وكلامه عنه الذى ذكرناه سلفا، فقد تلقى د. مصطفى هجوما شديدا من الأصوليين، والسلفيين، وقد ذكرنا ما حدث بينه وبين د. بنت الشاطىء، ولم يكن الهجوم عليه من مصر وحدها،

يقول في كتاب (الغد المشتغل):

لقد كنت هدفا لتلك الموجة الغوغائية التي استخدمت الدين للهدم والتحريف ونشر الفوضى حين صدر كتابي (القرآن محاولة لفهم عصرى) فطلع من السودان كتاب أسود فى حقى من تأليف محمد طه يتهمنى بالكفر والضلال، وقد شئق هو نفسه بذلك بنفس التهمة ، شئقه حكم قضائى فى عهد النميرى. وتلا كتابه كتب أخرى تتهمنى جزافاً، اتهمت بأنى قاديانى وبهائى.

ونكرر القول بأنه لولا الرجلين المستنيرين المرحوم د. عبدالحليم محمود شيخ الأزهر والصوفى صاحب المقامات العالية، والمرحوم د. عبد العزيز كامل وزير الأوقاف لظل هذا الكتاب فى طى النسيان حتى الآن.

ونحن لا نضع د. بنت الشاطىء فى صف هذه الهجمات الغوغائية طبعاً. سألت د. مصطفى.

- لماذا لم ترد عليها حتى ولو بمقال واحد؟

- قال : لم أفعل ذلك لأنها من الجالسات على مائدة القرآن الكريم فلها قدرها وأنا أحترمها على أى حال.

- قلت: فلم فعلت ذلك؟ شجعتك على وضع الكتاب واختارت عنوانه ثم قامت بالهجوم عليك؟

قال ضاحكاً: يعنى يا سيدى واحد فتح دكان جنب واحد تانى يملك نفس البضاعة ، ماذا تنتظر أن يحدث؟

ومن المواقف التى عشتها بنفسى هذا الموقف:

أعطانى د. مصطفى كتاباً لأحد الصحفيين عبارة عن حوار معه، فوجدت فى الكتاب ذكراً لأمور خاصة جداً بحياة د. مصطفى وكلاماً لا يهم القارئ ولا يفيد، ورأيت أنه من باب الاحترام والأدب عدم ذكر هذه الأمور الخاصة، فهى فضول ولغو فارغ.

ود. مصطفى كاتب كبير ورمز من رموز الإسلام، إنه ليس مغنيا ولا لاعب كرة ولا يمثل في حلقات فوازير رمضان. ولا.. ممن يكتب عنهم أخبار في الحقيقة تدخل في نطاق الغيبة والنميمة، مما يقرأه الناس في أخبار النجوم، والنجوم يا أخى إذا أردت أن تعرف من هم؟ هم صحابة رسول الله ﷺ قال ﷺ: « أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم، اهتديتم، فانظر على من صارت تطلق هذه الصفة، ولا حول ولا قوة إلا بالله. ووجدت حرجاً كبيراً في أن أفتح د. مصطفى في الأحاديث الفضولية التي وردت في هذا الكتاب عنه، ولكنى قلت له: سوف أخوض معك في أمور خاصة من منطلق حبي لك وغيرتى على مكانتك بين القراء والشباب خاصة؛ فانت قدوة للصغير والكبير ورمز من رموز الإسلام.

قال: ماذا تقصد؟

- الكتاب الذي وضعه فلان عنك في شكل حوار وقال كذا وكذا.

- حصل أننى قلت له بعض ما ذكرت ، لكنه صحفي (هجأص) لم يكتب باحترام، وبعدين يا سيدى أنا إنسان خطأ ومذنب لا أنزه نفسى عن الخطأ كما يفعل بعض الكتاب، كما أننى لا أهتم بما يقال عنى، فقد قيل أكثر مما ذكرت أنت، أنا لا أرد على أى إنسان يهاجمنى، ليقل من يشاء عنى ما يريد، أنا لا أقيم لهذا الموضوع أى وزن. فوَّت يا عم أحمد فوَّت لا تقف عند هذه التفاهات والصفائر ، والكتاب الذى تعنيه، كتاب للتسلية لا أكثر، خبطة صحفية كما يقولون، أنا لم أرد على د. بنت الشاطئ التى كتبت ٤٠٠ مقال تهاجمنى ، فهل تريد منى أن أرد على هذا الكلام الفارغ؟!

وهذا يا أخى شأن أهل الله.

يقول ابن عطاء في الحكم: «غَيْبُ نَظَرِ النَّاسِ إِلَيْكَ يَنْظُرُ اللَّهُ لَكَ، وَغَيْبُ عَنْ إِقْبَالِهِمْ عَلَيْكَ، بِإِقْبَالِهِ عَلَيْكَ».

والهجوم على د. مصطفى له سبب واحد، هو دفاعه عن الإسلام والمسلمين في كل مكان، ولا يوجد سبب آخر، فنحن في زمن ترويج الفساد والضياع وواد الأخلاق في مهدها.

والاهتمام بالناس من أكبر القواطع في طريق الله، يسميهم أهل الله حراس الحضرة: مثل الشياطين يمنعون المريد من الدخول على الله، ما لم يهملهم وينفذ من دائرتهم، فمن يراعى الناس يتكلف لهم حتى يرضيهم، فقد عبدهم ولم يعبد الله، وإرضاء الناس مستحيل، فكلهم أغراض وأمراض نفسية، إذا كان الناس لا يرضون عن الله، ويسخطون على أرزاقهم وأقذارهم التي أرادها الله لهم فهل يرضون عليك، فلا تسع إلى المستحيل، فتهلك نفسك وتضيع حياتك ووقتك.

وليس المقصود عدم مساعدتهم إذا احتاجوك، بل يجب إعانتهم ودفع الضر عنهم، وجلب الخير لهم، ولا تنتظر منهم شيئاً. ولكن لكل شيء حد تقف عنده، فلا تكلف نفسك أكثر من استطاعتها، فتظلم نفسك، ونفسك أقرب الناس إليك، وظلمك لها، أكثر ذنباً من ظلمك للناس، وهناك أصناف من لثام البشر لا ينفع معهم إلا الشدة وإهمالهم تماماً، وكل من قطعك عن طريق الله فهو عدوك، ولو كان أخاك أو أباك، أو أمك وأكثر الناس جهلة لا يعرفون الله، قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَطِعْ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يَضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١١٦] فتخلص يا أخى من هذه الآفة بإرضاء الله ولو كان في رضاه سخط جميع الناس عليك، فالله هو الذى ينفعك ويضرك والناس موتى في صورة أحياء لا نفع منهم ولا ضرر.

٧ - الزهد :

ومن البصمات الصوفية في حياته رضاه بما قسم الله له في الأزل حتى في بدايات حياته وهو صغير، نقول عنه (الطفل الزاهد) فقد كان يذهب إلى المدرسة سيرا على الأقدام، وكان يزور أقاربه في القرى المجاورة لطنطا وهو يركب الحمار، يقول: «كنت وأنا خارج من المدرسة أرى السيارات تنتظر زملائي. ولم يكن لذلك أى تأثير فى نفسى رغم أنى كنت صغير السن، ولم أحلم بأن أمتلك سيارة أو فيلا، ولم أفكر أن أكون غنيا يوما ما، ولكنى كنت أتطلع إلى تحقيق القيم النبيلة والمثل العليا، والخير والفضيلة فى نفسى». وحتى الآن، حين ذهبت إليه فى مسكنه بالمهندسين كنت أتصور أنه يعيش فى شقة فاخرة أو فيلا، ولكنى وجدته يعيش فى شقة صغيرة، تكاد تكون حجرة وصالة، ملحقة بأعلى المركز الإسلامى، وهذا هو الزهد، ظاهرا وباطنا، وقد سمعت من أهل الله ورأيت منهم، من يستطيع أن يعيش فى قصر، ولكنه يعيش حياة كلها تقشف، لتهديب نفسه، ومنعها من الزكون إلى الدنيا، وهذا لا يمنع أن يوجد من أهل الله العارفين الأكابر من يعيش فى وضع يشبه حياة الملوك، وفى نفس الوقت لا يغفل عن الله نفسا واحدا، ويترقى فى مقامات الولاية فى كل أوقاته، وكان سيدنا أبو الحسن الشاذلى صاحب تجارات ومزارع واسعة، والإمام الليث بن سعد فقيه مصر فى زمانه، كان أثرى أهل عصره. ولكن هؤلاء قلة، وأغلب أهل الله يفضلون التقشف المعتدل أو قل الحياة العادية.

وأخبرنى أخى فى الله د. محمد مهنا الرجل المبارك الصالح المتواضع أنه قابل فى فرنسا، فى باريس شيخا للطريقة الشاذلية، كان أستاذا بالجامعة، وسفيرا لفرنسا فى هولندا، زاره فى منزله الفاخر بباريس. فكان يستقبل ضيوفه فى صالون المنزل المؤسس

بأساس من أفخم ما يكون، ويقدم لهم أشهى الأطعمة ، ولكنه كان يخصص حجرة في منتهى التواضع لنفسه، وينام فيها على حصير.

٨- حب العزلة :

د. مصطفى يحن دائما إلى العزلة، والخلوة مع نفسه، والتأمل ومحاسبة نفسه من وقت لآخر، حين ناقشته في مسرحية المسيح الدجال قال: كتبتها في ألمانيا، في جبل فوق مكان يسمى الغابة السوداء، صمت رهيب، وعزلة جميلة ووحده مطلقة، لا تسمع ولا ترى أحدا ، وهو جو محبب لنفسى جدا، قلت: معنى هذا إنك في سفرك إلى الخارج لا تقوم بإلقاء محاضرات أو عمل ندوات تتحدث فيها عن أفكارك؟ قال: لا أفعل هذا لا في الداخل ولا في الخارج، ولا أحب الوقوف على منصة أمام جمع من الناس ومناقشتهم.

والمناظرة الوحيدة، التي اشتركت فيها، كانت في الخمسينات في الجامعة الأمريكية، بينى وبين أحمد بهاء الدين، كان هو يمثل التيار الشيوعي، وأنا أمثل التيار الآخر. ولم أقم بعدها بإجراء مناظرات.

والبصمات الصوفية في حياة د. مصطفى كثيرة، لكن بعضها يمس حياته الخاصة جدا، ومن الصعب على أن أتناول هذه الأمور لشدة احترامى وتقديرى له، ولأنه من أهل البيت، ومن عرف مقام أهل البيت الصالحين ، عرف كيف يكون الأدب معهم، ويا سيدى يا رسول الله عليك صلاة الله وسلامه أرجو أن يكون هذا الكتاب الذى صنفته بعون الله لا بقدرتى لتعريف الناس بالجانب الصوفى في حياة واحد من أهل بيتك أرجو أن يكون من باب (المودة فى القربى) وأن يتقبله الله تعالى وأن يكون حجة لى، لا حجة على يوم القيامة.



د. مصطفى محمود

والتصوف



الغيرة

الصوفية

في

إبداعاته

الأدبية

نحن نتكلم مع القراء الذين يشتغلون بقراءة الأعمال الأدبية الجادة والتي تحوى مضموناً مفيداً للقارئ في الدنيا والآخرة. لا مع كل قارئ ولا مع الذين يشغلون أنفسهم بالتسلية، من أراد التسلية فعليه (بقزقة) اللب والسوداني، فربما يشبع بطنه بهذه التسلية فيستفيد (حاجة)، وكذلك قراء أخبار الكواكب والمجرات والنجوم والتخوم والألغاز، وحل الكلمات المتقاطعة، وكذلك الجيل البائس الطالع من دماثنا، والذي مازال يطالع سلسلة الروايات البوليسية وحكايات الرجل الأخضر والأحمر والأصفر، مازال يقرأ ذلك وهو في الجامعة وعلى أبواب التخرج، مازال يطالع قصص الرجل الخارق، والفاسق، والسارق، والمارق والسوبر مان. ورجل الفضاء والشقاء والعناء، ويشاهد مسلسلات قتل الأخلاق وفساد النيات، مثل الجريء والجميلات، والدنيء والعاشرات القبيحات الفاجرات، ونقول للأسر المصرية، بصروا أولادكم، بعد أن تبصروا أنفسكم، فهذه الكتب والمجلات ليست مصدر علم وتوسيع خيال الذي خلقه الله في قوة الإنسان المعنوية، وكيف ينميه، وما فائده الخيال وأنواعه وعظمته؟ وماذا يتصل؟ وإلى ماذا يؤدي؟ أه لو عرف الناس ذلك، وسيعرفونه يوم القيامة ويقول بعضهم: (يا ليتني كنت ترابا) ويقول البلب الرقيق من شبابنا: يا ليتني كنت غرابا، وهذه الكتب أسماؤها

الحقيقية: كتب الرجل المنحط وقتل الوقت. وليس السوبرمان، فهذا اللفظ يعنى الرجل الأعلى المتفوق على أبناء جنسه، العالى المقام، وهو العارف بالله، فلا تخذعكم الألفاظ، وتكونوا مثل الأنعام، ويسوقكم أهل التنوير والتزوير إلى أودية الهلاك كالأغنام.

سألت د. مصطفى . ما هى الكتب المفيدة والفن المفيد عموماً؟

قال: الأدب والفن عموماً ينقسم إلى قسمين: قسم نسميه فن قتل الوقت وهو الذى لا يغير نفس القارئ إلى الأفضل، ويبث فيه الرذيلة والضياع، وفن إحياء الوقت وهو الذى يجعل وقت القارئ ثرياً ومفيداً ويخرج منه بأمور نافعة فى الدنيا والآخرة.

وصية للأسرة المصرية:

يقول الصوفية: (الوقت سيف، إن لم تقطعه قطعك)، أى إن لم تقطعه فى الخير قطعك فى الشر، وإذا ضاع الوقت فى المباح فهو خسارة وحسرة وندامة عليك يوم القيامة، فكيف إذا ضاع فى اللهو والفساد؟ وإذا كانت الكتب المشهورة فى مجال الأدب، بعضها يدخل فى نطاق فن قتل الوقت وهى لكتاب عالمين بالمفهوم المعاصر، ونكرة ولا وزن لهم عند الله بالمفهوم الحقيقى، فكيف نغيرها؟ وكل كتاب لا يقرب الإنسان من الله ويعرفه بالحقائق الثابتة، ويرشده إلى الطريق المستقيم، ويفيده بمعرفة أحوال الدنيا وقيمتها. فقراءته لا تنفع، وهو كما يقولون من أنواع العلم الذى لا ينفع والجهل به لا يضر، وقد استعاذ رسولنا ﷺ من العلم الذى لا ينفع قال ﷺ: « أعوذ بالله من علم لا ينفع، وقلب لا يخشع، وبطن لا تشبع ودعاء لا يستجاب له، وأنت تقرأ لتعمل بما تقرأ، والعلم حجة لك إذا عملت به، وحجة عليك إذا لم تعمل به. ووقت الإنسان غال وأنفاسه عزيزة، وعمره هو رأسماله، فكيف تضيعه يا أخى؟ هل إذا ملكت مبلغاً من المال، تسير فى الشارع

■ النبرة الصوفية في إبداعاته الأدبية ■

وترمى به على الأرض، لا يفعل ذلك إلا إنسان مجنون، والوقت أثمن من المال لو عرفت الحقيقة. ونوصي الأسرة المصرية، التي تجد في أبنائها حب القراءة أن تحثهم أولا على قراءة كتب د. مصطفى محمود، ولا نجاهل الرجل، ونحن نتحدث عن قراءة الأدب والتنوير كما يقولون. وإلا فالأساس هو قراءة كتاب الله والسنة، أولا وأخيرا، ولكن كيف نسحب أولادنا من الضياع تدريجيا، نحاول أن نشفيهم من الأمراض الفكرية، التي تجرعوا سمومها من الكتب التي ذكرناها في بداية هذا الفصل، بأن ندخلهم في حيز العلاج بقراءة مؤلفات د. مصطفى محمود. فهو يدعو إلى تغيير النفس، ويصير القارئ بما ينفعه، ويحذره من مضمون الروايات والقصص الفاسد والذي وضعه كتاب حازوا على أعلى الجوائز العالمية. وانبهر بهم أولادنا، وأصبح الواحد منهم يضع رواية الغثيان، أو السام، أو الصخب، والعنف تحت إبطه ويسير مختالا، ويظن أنه مثقف، والثقافة معناها في معاجم اللغة: التأديب والتهذيب، وجمع المعلومات التي تحسن أخلاق الإنسان وتهذب نفسه. فإن أردت أن تكون مثقفا فاعرف هذا المعنى واعمل به، واجعله أساسا لتثقيف نفسك. ونحن نخاطب الأسرة المصرية الحريصة على الحياة الحقيقية قال تعالى: ﴿وَأَنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤] حياة الخلود الأبدية، المستقبل الذي يجب أن يسعى الإنسان إلى تكوينه، وما أعطانا الله هذا العمر القصير، لا لنعمر مستقبلنا الدائم في الآخرة، بعمارة الدنيا وعبادة الله واتباع الكتاب والسنة، أما من أخذ إلى هواه، وغفل عن مولاه، واشتغل بدنياه، (فليترك على عماه، ويصنع قفاه) كما قال الشيخ الأكبر ابن عربي .

النبرة الصوفية :

هي الإرشاد إلى الطريق المستقيم، والصراط القويم، ببناء خافت هامس، معتدل، إشاري، مؤثر، وواضح في نفس الوقت، يجعل القارئ بعد أن يقرأ الكتاب يعود إلى نفسه ويحاسبها، ويراجع حياته وأفكاره واتجاهاته وهدفه، ويعرف أنه إن عاش الدنيا للدنيا فقط فحياته لا قيمة لها بالمرّة، وأنه يعيش في وهم وخيال فاسد، ومتع زائلة وزائفة وقليلة جداً، وهي ليست متعة فلا تخلو أبداً من التنغيص والكرب والتعب في النهاية. والحياة المثمرة التي لها قيمة عالية ومعنى عظيم هي الحياة في طاعة الله، والتحلّي بمكارم الأخلاق، وجهاد النفس، واكتساب صفات الزهد والصبر، والتوكل، والرضا والقناعة ووزن الأمور بالميزان الشرعي، والافتداء بأسوتنا الحسنة الرسول محمد ﷺ واختيار الرفيق الصالح. يقول ابن عطاء الله السكندري: «لا تصحب إلا من ينهضك إلى الله حاله، ويدلك على الله مقالته»، باختصار يعرف الإنسان قيمة حياته، ولماذا هو موجود، وما هو المطلوب منه. وهذه النبرة الصوفية، لا يخلو أي كتاب من مؤلفات د. مصطفى محمود منها.

مدخل لقراءة مصطفى محمود :

انفرد كاتبنا بطريقة متميزة في دعوته إلى التمسك بالكتاب والسنة، والدعوة إلى سلوك الطريق الصوفي لمن يقدر على ذلك، من خلال إبداعاته في القصة والرواية والمسرحية، ولتأثره بالعلم الحديث والتقدم التكنولوجي، قال في نفسه: لماذا نترك هذه الوسائل في أيدي الجهلة والملحدين والمفسدين في الأرض؟ وتصدى لهم، ودخل ميدانهم، والحقيقة يا أخي إن كل وسائل العلم الحديث، من تليفزيون، وسينما وإذاعة وأقمار صناعية،

وكمبيوتر، هي من علم الله المخزون في اللوح المحفوظ فلا علم إلا علمه سبحانه وتعالى : ﴿ولا يحيطون بشئ من علمه إلا بما شاء﴾ وينزل الله علمه بقدر على من شاء من البشر، كل واحد حسب استعداده واجتهاده وقبوله، وكل هذه العلوم الحديثة أنزلها الله لنفع عباده بما يلائم هذا الزمان، ولكن النفوس المريضة الملحدة، استخدمت هذه النعم في نشر النقم، وخاض الدكتور مصطفى طريقاً صعباً حين وضع نفسه في هذا المجال، ولذلك نضع أمام القارئ، ما يراه كاتبنا مناسباً لفهم إبداعه أو بمعنى أدق رأيه في كتاباته، وتقييمه لرسالته من خلال عرض مختصر كتبه، كمقدمة لمجموعته القصصية (المسيخ الدجال، التي نشرها عام ١٩٧٩، والمجموعة تبدأ برواية ، أو قل مسرحية تشبه إلى حد كبير مسرحيته الأخيرة زيارة للجنة والنار).

يقول مصطفى محمود:

ليس ما كتبت ديناً ولا علماً، بل هو فن وخيال وأسطورة وإطار فانتازي.. لنقد شخصيات وآراء ومذاهب ، وآرائى قد تخطئ وقد تصيب، وقد نكون في هذا اليوم المشهود (يوم القيامة) أسوأ حالا من كل من نقدناهم، نعوذ بالله من المقت والإبعاد، إن ما أكتبه فن، فن خير، الهدف منه التحبيب في الخير والتنفير من الشر، وأنا لست رجل دين ، بل أنا فنان دخلت إلى رحاب الدين من باب الفضل الإلهي، والفن كان دائماً ضعفى وقوتى، وكل ابن آدم خطأ، ولهذا لم أدع لنفسى العصمة ودائماً أراجع ما أكتب . فإن رأيتنى كتبت صواباً فمن الله، وإن كتبت خطأ فمما سولت لى نفسى، بهذه الروح أحب أن يقرأنى الناس، فما تصورت نفسى أبداً مفسراً للقرآن، أو حاكماً فى قضية فقه أو شريعة، إنما هى محاولات فهم من مفكر، دوره لا يزيد على إثارة العقل وإخراجه

من رقاذه، وإيقاظ القلب، وتفتيحه على محبة الله، فإن استطعت أن أعيد رجالاً ابتعد عن الحق، إلى الطريق المستقيم وإلى فتح المصحف فهذا أقصى مرادى، أما تفقيه هذا الرجل فى الدين فهذا دور العلماء المتخصصين. وحسبى أنا، أنى قد جئت به إلى بابهم، وأيقظت استعداده، فما أنا بالعالم، بل أنا مجرد فنان ينتهى دوره عند إثارة حب الحقيقة فى قلب القارئ. وفى هذا فليحاسببنى القراء والنقاد لا أكثر، فلا يحاسببنى أحد على أننى فقيه مثل الشافعى وابن حنبل، وأبى حنيفة، بل فنان يتحدث عن الله بلغة جديدة فيها جلوة الفن، لجذب الفراشات المبتعدة الغافلة، التى لم يكن من الممكن أن تصل إليها لغة ابن حنبل أو أبى حنيفة، والفن أعظم جهاز دعاية للدين. بشرط تطهيره من العرى والعهر والهزل والفحش. بل نقدم فناً يدعو إلى الخير والعدل والحق، فناً يقدم هذه المضامين العالية، وتلك هى رسالتى . أ. هـ.

استعداده الصوفى فى إبداعه:

الكتب التى ألفها كاتبنا قبل صحبته للصوفية عام ١٩٦٦، لا تخلو من نبرة صوفية. لكنها خفية جداً، ونادراً ما تكون واضحة؛ فرواية (المستحيل) التى كتبها عام ١٩٥٩م تدور حول البحث عن النفس وسر العذاب الإنسانى هو عدم معرفة الإنسان نفسه. ويقول أهل الله « مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ عَرَفَ رَبَّهُ ».

سألت د. مصطفى: ماذا تريد أن تقول فى رواية المستحيل؟ قال: مستحيل أن يكون الإنسان إلا نفسه، لا يمكن أن يكون إنساناً آخر غير نفسه، وما كمن فيه.

ونستمع إلى المرحوم يحيى حقى الناقد والأديب الكبير يقول: أثارت قصة المستحيل بمجرد ظهورها، اهتماماً غير قليل لدى المشتغلين بالأدب. فهى أول قصة طويلة يكتبها د. مصطفى

محمود، الذي أكد رسوخ قدمه في القصة القصيرة. وأثبت أنه من ألمع كتاب الجيل الجديد وأوضحهم أصالة وصدقاً مع النفس. والكاتب يتمتع بشخصية جذابة هذا الفتى الأسمر النحيل، مثال مجسم للذكاء والرقّة والحياء وحسن الأدب، بين جنبيه روح معذبة تحترق، لا في سبيل عرض الحياة الدنيا والمادة، بل في سبيل المثل العليا للجمال والخير والصدق. والمستحيل قصة جوانية، عمودها الرئيسي عالم النفس والشعور، وهموم الروح، وهذا نوع جديد نفتقر إليه ثم نفقله، رغم زعمنا (أهل الشرق) أننا أمناء على تراث روحانى لا مادى، إنه يفسح المجال الضيق الذى يحبس قصصنا فى العالم الدنيوى وهذا سبب محليتها، فالعالمية هى لغة الروح الإنسانية، والمستحيل قصة عنيفة تعالج مأساة النفس الضائعة والبحث عنها، وهى مأساة إنسانية خالدة، والعكوف على النفس وتأملها، وهذا الطبع الإنسانى يفضى إلى الحزن الوديع الذى يعرفه الصوفية أهـ^(١).

والقصة تحتوى على مضامين صوفية نترك للأستاذ يحيى حقى استخراجها حتى لا يقال عنى أننى ألوى المضمون وأستخرج منه نبرة صوفية (بالعافية) ويحيى حقى أديب وليس صوفياً يقول:

١- إحدى بطلات القصة (نادية) لا ترضى بحب يبنى على الخيانة؛ وهذه دعوة إلى العفة وحفظ الزوج فى غيابه وحضوره على عكس ما نقرأ فى الروايات الأخرى.

٢- (الخلاص ليس من صنع الإنسان ولا يتوقف على سعيه وجهده وإرادته) وهذه ليست نبرة بل ركن السلوك الصوفى وهى عدم الاعتماد على النفس بل السلوك بالله وعونه وبدون الله لا خلاص ولا سلوك.

(١) خطوات فى النقد، يحيى حقى - ط دار العروبة القاهرة ص ٢٨٠ وما بعدها.

٣- (باب النجاة هو الإيمان بقدرة عليا والرضا بأحكامها)
والرضا من مقامات السلوك والإيمان بقدرة الله والتمسك بحبه
هو أساس الكتاب والسنة.
وهذه شهادة يحيى حقي ، كناقد أدبي، وتكفي هذه الشهادة
بوجود النبرة الصوفية في رواية المستحيل.
النقد الأدبي :

مجال النقد الأدبي واسع، وله أساتذة متخصصون، ولكنه
لا يغنيا كثيرا في تناول النبرة الصوفية، فدراستنا تهتم
بالمضمون لا بالشكل والقالب الفني، ولن نتطرق إلى الحديث عن
الحبكة القصصية واختفاء المعاني بين السطور والأسلوب الخطابي
الذي يفسد العمل الفني وإقحام الكاتب نفسه في القصة، والمهارة
في اختيار الألفاظ، واللغة الشعرية والحدث المناسب، وقد اشتغلنا
بكتابة القصة لعدة سنوات ونعرف أصول الإبداع، ونقدر على
تناول إبداع كاتبنا من هذا الجانب، لكنه سوف يشقت القارئ
ويضيع الهدف الذي نسعى من أجله في هذا الكتاب.

ويقول النقاد: ليس الأدب وعظا وإرشادا وأمرًا ونهيًا مباشرًا،
وأن لا تكون النهاية في العمل الأدبي تقريرية وعظية، ويقولون
بعدم إقحام حدث آخر على الحدث الأساسي، وأن لا تكون الفكرة
سافرة صارخة وأن تلعب المناظر الطبيعية دورها في العمل الفني.
وأهمية وحدة الفعل والزمان والمكان. وعنصر التشويق والخيال
والإثارة وعدم تكرار الأفكار، وصدق التجربة، والتلاحم بين
البداية والنهاية وعدم تفسير الرمز الفني وترك القارئ يكتشفه
بنفسه (وكأنه مقام من مقامات الولاية والعلم المصنوع به على
غير أهله) والمنولوج الداخلي وتيار الوعي، وتقسيم الإنتاج الأدبي
إلى واقعية تقليدية وهي الوعظ والنصح الخالي من الفن، وواقعية

حديثه، وهي التي يتدفق فيها تيار الرمز والشعر والتلميحات، إلى غير ذلك من أصول الإبداع والنقد. وهذه وظيفة أهل هذا الفن، ونحن معهم إلى حد ما، ومؤلفات د. مصطفى لا تخلو من هذه القواعد رغم وضوح رؤيته للقارئ.

ورغم أن النقد الأدبي له أصول وقواعد سليمة راسخة ومهمة، لكنها لا تهم القارئ العادي الذي نريد أن نعرض له الأفكار مثل الشمس في وسط السماء، فلا ندخل به في دوائر التعمية والتعتيم والغموض، ونقول إن القارئ مبدع ثاني كما يقول النقاد، فإن القارئ إذا لم يفهم قصد الكاتب ودعوته وهدفه في وضوح، حتى يعمل به إن كان خيراً فقد أدخلناه في دوامة لا مخرج منها، ولا يجنى من ذلك إلا ضياع الوقت الذي نحرص عليه، بل نحرص القارئ على استثمار وقته في جهاد نفسه وإرضاء ربه.

ونرفض ما يقول به بعض النقاد بتأثر د. مصطفى بجيمس جويس صاحب رواية عوليس ونضع أمامهم قول الكاتب ليونيل ترلنج في كتابه (فرويد والأدب) : لقد أمعن جويس في استخدام فرويد إلى أقصى الحدود، وقد خدع هو وغيره من كبار الكتاب بكلام فرويد من أن التراجيديا تستعمل علاجاً للألم، وتحمل الآلام العظيمة أهـ وفرويد في نظر د. مصطفى رجل مهووس جنسياً، يعيش في مستنقع الأعضاء التناسلية.

واعلم يا أخي أن مضمون إنتاج أي كاتب هو مضمون نفسه، وما تنطوي عليه من أحاسيس ومشاعر وأفكار وأخلاق، ولا يكون غير هذا أبداً، ومسألة الحياد في الإبداع، أكذوبة كبيرة، ليس لها وجود في الواقع، ونفس د. مصطفى محمود تنطوي على حب الله تعالى وحب رسول الله ﷺ وأهل بيته وصحابته، فمضمون إبداعه هو هذا الفكر الراقى الشفاف النوراني الذي ينبع من مشكاة

النبوة، وهو يحاول تقريب هذا الفكر للقارئ، ومضمون أعماله تدور حول هذه الغاية العظيمة، مثل التعريف بحقائق الوجود، وكشف الكذب والخداع، وتزهد الناس في متاع الدنيا الزائلة، وكشف اللثام عن كنه الإنسان الذي كرمه الله. ومؤلفات كاتبنا، لا تقرأ للتسلية، بل تحتاج لقراءة ودراسة متأنية وجادة، حتى يخرج منها القارئ بفائدة تنفعه في دنياه وآخرته.

المرأة والحب والزواج :

قد يسأل القارئ: وهل في الحديث عن هذا الموضوع نبوة صوفية نقول له: الرؤية الصوفية، رؤية اعتبار، أى عبور من ظاهر الأشياء إلى باطنها وحقيقتها، رؤية تجليات الله في كل شئ يتجلى الإسم الجميل، فى المرأة الجميلة، أحيانا باطنا، وأحيانا ظاهرا، وفى كل منظر جميل. وحديث أهل الله عن المرأة ليس موضوعنا؛ فإنهم يتكلمون عن أسرار وعلوم حضرة الانفعال إلهية، والتي تمثلها المرأة فى عالم الشهادة. ولما فتح الله على الشيخ الأكبر ابن عربى بهذه الأسرار قال: لولا النفوس الشهوانية المريضة، التى لا ترى إلا الجسد، لاسترسلت فى الحديث عن أسرار تكوين المرأة، وماذا يقابل كل عضو فيها من العالم الكونى؟ ولكن النفوس المحجوبة تمنعنا من ذلك، وهذه الأسرار والعلوم الإلهية هى سبب تحبيب الله للرسول ﷺ فى النساء. وقال الله عن المرأة إنها زهرة: ﴿وَلَا تَمْدَنَّ عَيْنِكَ إِلَىٰ مَا مَتَعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ١٣١] ويقول ابن عربى: من لم ير المرأة زهرة، ورآها جسدا، ولم يشم رائحة الزهرة منها فليس من العارفين المحققين. والعارفين كلام وأسرار عن الزواج، هى من العلوم التى لا تسطر فى كتاب.

ونعود إلى حديث د. مصطفى محمود فى هذا الموضوع؛ يرى

د. مصطفى أن المرأة إذا لم تكن جميلة الباطن، واكتفت بمظهرها الخارجي، فهي فتنة كبيرة، وقاطع خطير لمن يريد معرفة نفسه، ومعرفة الله، والخلود إليها ضياع.

ويرى جمال المرأة عارية من عند الله، كما يرى ذلك الصوفية، فهي لا تملك جمالها، والجميلة لم تجتهد حتى تكون جميلة، ولو كانت تملك هذا الجمال لاحتفظت به، لكنه يزول، فهو يحذر الرجل من الافتتان بجمال المرأة، وأن لا يجعلها كل حياته، وتدور أغلب قصصه القصيرة حول هذا المحور. فهذا رجل يقتل رجلاً آخر لشدة غيرة وحبه لإحدى النساء، ثم يدخل السجن ٢٥ سنة، ويخرج، ليرى هذه الحسناء الفاتنة الساحرة الطاغية الجمال، قد شاخت وترهل جسدها وتغضن وجهها، وخط المشيب في شعرها، وكل شيء فيها تدهور، فيتحسر في نفسه، ويشعر بالتفاهة، لقد ضاعت حياته بسبب غيرة الحمقاء على مظهر جميل سريع الزوال، وزينة مؤقتة.

ويرى د. مصطفى أن المرأة التي لا تعرف الله، ولا تتخلق بالأخلاق الفاضلة، هي مثل سائر النساء الغافلات عن الله تكاد لا توجد، المثقفة مثل الجاهلة، جميلة ورشيقة، أو كوم من اللحم، لا فرق، تجيد الطبخ وإرضاع الأطفال أو تهتم بشوبان وبيتوفن ولوحات فان جوخ، المحصلة واحدة.

وتصوير د. مصطفى لهذا الموضوع في قصصه، تصوير (خفيف الدم) تمتزج فيه التراجيديا بالكوميديا، وهو ما يسمى في الأدب بفن (الفارس) فهذا أستاذ يحمل دكتوراه في الذرة والعلوم النووية، من أمريكا تزوج للمرة الأولى من امرأة تجيد تنفيض السجاجيد، وإرضاع الأطفال وطهى البطاطس في الفرن وكما هي العادة تجيد النكد. حاول شدها إلى اهتمام مشترك يجمع بينهما ففشل في ذلك.

ثم تظهر في حياته المرأة الثانية وهي دائما في نظر الرجل المتزوج، ناعمة حريرية ، رقيقة كالوردة، متألقة، وهي هنا أستاذة في الكونسرفتوار حائزة على دكتوراه في التوزيع الكورالي، ويتم طلاق المرأة الأولى والزواج من الثانية فيحدث الآتي:

تريد الذهاب لتدور حول الهرم وتسمع شوبان فيأخذها ، وتعود آخر الليل مرهقة، وتبلع حبة (فالسيوم) وتنام، وبعد أن كان يحدثها في التليفون خمس ساعات ولا يشبع ولا تمل هي. يسألها ما لك؟ تقول:

- جوايا تعبان، حاسة جوايا كآبة، وظلمة وعتمة، وليل، الدنيا جوايا ظلمة أوى، عندي صداد، مش شايفاك، ولا شايقة حد، نفسي أقعد سنين لوحدي، كياني مسروق، بدور على عنوان نفسي مش لاقياه، مشيت في الشارع الغلط، عندي انغلاق ذاتي، وتقلص نفسي وانكماش روحي، حاسة الشمس بتغرب جوايا، عايزة أموت، فيه حاجة بتسويني بالأرض.

وتنتهي القصة بقول الأستاذ الجامعي: وهكذا طلقت الثانية، طلقت الثقافة الرفيعة والدكتوراه والهارموني والتحفة الجمالية التي ظننت في لحظة أن أقصى أملها أن تعيش معي فلما عاشت معي رأيته تهرب مني وتعيش في غيبوبة الفاليوم.

يا سادة يا كرام أنا الآن أبحث عن بائعة فجل أو جرجير، إنسانة على الفطرة لأتزوجها وأعيش معها على الفطرة البسيطة التي خلقها الله، ليس عندها انفتاح وانغلاق استبطاني، أنا أعلن على الملأ أنني رجعي جدا وبدائي. هذه هي قصة (البحث عن زوجة) لخصناها بإيجاز من كتاب المسيخ الدجال ص ٩٨ وما بعدها.

فالدكتور مصطفى الذي استقى معرفته من الكتاب والسنة

ومؤلفات العارفين الكبار، وعایش الواقع الاجتماعي، وسرت في قلبه الحقائق الإلهية، يرى أن انحصار الرجل في دائرة المرأة أو انحصار المرأة في دائرة الرجل، وتصور أن ذلك يجلب السعادة، هذا انحصار في طوق ضيق من متع الدنيا، وتصور ساذج وسطحى، تصور إنسان جاهل غائب عن حقيقة الحياة، فالراحة مع الله فقط إذا كنت مع الله ، فكل ما خلق الله في خدمتك، وإذا كنت مع غيره كنت عبدا لكل شئ وتخبطت في حياتك ، حتى يأتيك الموت.

الحسب :

يرى كاتبنا أن الحب لا يكون إلا لله، والصلة بين الرجل وزوجته صلة مودة ورحمة، وهى التى تدوم، وما يتصوره العاشقون حباً ما هو إلا شهوة، مغلفة بكلمة حب، والعاشق الذى لا ينام ولا يأكل، ويسقط عليك مثل مجنون ليلى، إذا تزوج من فتاته وحلم حياته وأمله الوحيد فى الدنيا، وصنمه الذى يعبده، ألا تسمع فى الروايات والأفلام المحب يقول لحبيبتة: أنا أعبدك، وهى تردد نفس اللفظ، إذا تزوجا زال كل هذا الهيام، والتصور المريض ، يقول د. مصطفى: لو أن مجنون ليلى حصل على محبوبته ليلى، وتزوجها، لأفاق من جنونه تماماً، ولعاد له عقله من أول كلمة من ليلاه وهى تقول له : ابنك عنده إسهال، وأنا طهقت وقرفت منك ومن أولادك. قطعاً ستقبحر من دماغه الأطياف الملائكية ويلعن اليوم الذى نظم فيه قصيدة . ولربما قام يسب، وجلس على باب الخيمة وأنشد قصيدة يلعن فيها القمر والشجر وحياة مثل حياة البقر أما المودة والرحمة، والصلة بالله فهذه الأمور هى التى تفعل المستحيل ويضرب لنا د. مصطفى مثلاً بزوجة الرسول ﷺ صفية بنت زعيم اليهود حى بن اخطب. أشد

الناس عداوة للرسول، وفي حرب بين المسلمين واليهود قتل الرسول ﷺ أباه وأخاه، وكذلك قتل زوجها كنانة بن الربيع لكنها أسلمت وتزوجت من الرسول ﷺ وعاشت معه محبة وفيه إلى أقصى الحدود، ويقف الإنسان حائراً مأخوذاً أمام هذا الزواج. كيف تنمو المودة والرحمة عبر هذه الأضغان والعداوات.

كان الرسول ﷺ يدفع عنها كيد حفصة وعائشة حينما تدعوانها باليهودية فتأتى إليه باكية فيمسح دموعها، وتقول هي: كيف تكونان خيراً منى وأبى هارون وعمى موسى وزوجى محمد.

وكتب السيرة تقول إن نسبها ينتهى إلى النبی هارون أخى موسى عليهما السلام.

وفي مرض الرسول تقف على فراشه دامعة العينين قائلة: وددت يا نبي الله أن الذى بك بى.

وتتغامز زوجات الرسول من كلامها فيقول لهن: مضمضن من تغامزكن بها والله إنها لصادقة.

هذا هو الحب الروحى ، الحب فى الله، ولو سكن هذا الحب، الحب فى الله ولا نمل من تكرار هذه الصفة التى هى ركن من الولاية، لو حدث هذا بين الأزواج، لكان للأسرة والأبناء شأن آخر، غير الذى نراه الآن.

وظلت صافية على حبها للإسلام ووفائها لأصحاب الرسول ﷺ فأقامت جسراً بين منزلها وبين عثمان (رضى الله عنه) لتبعث إليه بالطعام وهو محاصر. لم تحب النبی ﷺ فقط، ولكنها أحبت الدين وافتدته بعمرها، إلى آخر لحظة من حياتها. أهـ (كتاب - محمد ﷺ)

هكذا يعرض لنا د. مصطفى فكره ورؤيته النابعة من بصيرته

■ النبرة الصوفية في إبداعاته الأدبية ■

القلبية. وقد أطلنا الحديث في هذا الموضوع لأن الأسرة هي نواة الحياة كلها، والشيطان يقف لها بالمرصاد لتفريق الأزواج، وتشتيت الأطفال وانهيار الكيان الذي بناه الله، لتعبده من خلال المودة والرحمة والراحة.
إنسان هذا العصر:

وإن عمل بما يخطط الله فهذه هي دنيا اللهو واللعب والتكاثر والتفاخر، والسكرات التي تُغيب عقول الناس مثل الدواب، تفاخر بالأكل والشرب والمسكن والصحة والمال والولد والبنت. وكل متاع الدنيا الزائل. والذي أعطاه الله لنا ليختبرنا فيه، كيف نعمل ونتصرف في هذا البلاء العظيم؟ وَلَكِنَّا لِلْأَسْفِ الشَّدِيدِ. نتفاخر بهذا البلاء ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَحِبُّ كُلَّ مَخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان ١٨] فهل نسعى إلى غضب الله علينا، هل هناك حماقة وغباء وبلاهة بعد هذا الذي نفعله؟ تتفاخر الناس بمظاهر الفساد، فهم لا يتفخرون بالإنفاق في سبيل الله والمروءة والعفة وحسن الخلق والقناعة والرضا. لا، إنهم يتفاخرون بالإسراف في سبيل الشيطان، هذا يتفاخر بأنه ذهب إلى المصيف الفلاني وأنفق كذا من المال. وهذا يزهو بأنه أنفق على عرس ولده أو بنته الآلاف بل الملايين من الجنيهات في ليلة واحدة في أفخم الفنادق إلى آخر هذه المظاهر التي تدل على غفلة أصحابها عن حقيقة الحياة، وأن الإنسان مسئول أمام الله.

وحين نتناول النبرة الصوفية في إبداع د. مصطفى محمود، لا نفرق بين المقال والعمل الفني، فكل كتاباته إبداع، وفي هذا يقول الأستاذ جلال العشري: إن د. مصطفى محمود يستخف

بمسألة الإطار الفني فهو لا يهمه أن تكون إحدى قصص مجموعة (أكل العيش) مثلاً أقرب إلى القصة القصيرة، بل إن الرؤية الفنية عنده كثيراً ما تكون قابلة للتناول على مستويين؛ فبعض القصص مثلاً يمكن تحويلها بمجهود يسير إلى عمل مسرحي أ.هـ^(١).

ويرى كاتبنا الدنيا من منظور صوفي، إذا لم يخرج منها الإنسان بالعمل الصالح والمعرفة الإلهية، كانت خدعة كبيرة، وخصوصاً إنسان هذا العصر، عصر القروء والصراخ، والغفلة، وتكالب الناس على الدنيا، وتفاخرهم بها، وأصبح إنسان هذا العصر يعيش في حيرة وضياح، والعثور على الحقيقة الآن أصعب من العثور على إبرة في ظلام، وأجهزة الإعلام تغسل مخ الإنسان كل يوم والأخبار تضلله والإعلانات تستغله، والسينما والمسرح، والتلفزيون كل ذلك تقتل وقته، واختلطت الأمور، حتى في اللحى، ترى غابات اللحى ولا تعرف ما تحتها، المشايخ لهم لحى والهيبيز لهم لحى ومدمنو المخدرات لهم لحى، وصارت الدنيا بتقديم العلم، أكثر خداعاً وزيفاً وكذباً، فأغرقت أفضل القيم في الوحل والطين، ونزل الإنسان من أعلى عليين إلى أسفل سافلين، وإن كان القليل من الناس أدرك الحقيقة، لكن بعد عناء رهيب.

يقول ب. مصطفى محمود:

جهلت مقامى ونزلت عن رتبتي وترجلت عن فرسى الأصيلة لأركب توافه الأمور.. وأمشى مع السوق، وأزحف على بطنى مع دود الأرض، استدرجنى الشيطان إلى بيوت القماش والورق وقدمنى إلى ناس يبتسمون للمصلحة، رجال وجوههم مدهونة ولساتهم ثعبانية، ونساء تغطيهن المساحيق فلا تبدو ألوانهن الحقيقية، عالم جذاب، كذاب، يبرق بالكلمات، الأصوات كلها

(١) أكل العيش، مصطفى محمود. تقديم جلال العشرى - دار المعارف ١٩٩٢ ص ١٠.

هامسة مبلة بالشهوة، تأكل الإيمان من الجذور.
تذكرتك يا رب وأنا أمشي في هذا العالم، فشعرت بالغربة، ولم
أجد أحداً يكلمني وأكله، يفهمني وأفهمه، نبذوني ورفضوني كما
نبذتهم ورفضتهم، ولكن سمعتك تقول: لبيك عبي، حين صرخ
قلبي يناديك، فاختفى ديكور القماش والورق، وذاب مسرح الخدع
الضوئية، وعدت إليك، لا إله إلا أنت. و (أناشيد الإثم والبراءة
ص ٧٩ وما بعدها)

وهذا يا أخى حال المؤمن الغريب عن وطنه السماوى، وطن
الأرواح لا يجد نفسه إلا فى صحبة من هم مثله، أما مع أبناء
الدنيا، فالحياة لا تطاق. يقول الصوفية: مجالسة أبناء الدنيا سم
قاتل.

ويتحدث كاتبنا عن الغفلة التى أهلكت إنسان هذا العصر
فيقول : هى غفلة عامة، غالبة، لا ينجى فيها علم ولا ثقافة،
ولا دكتوراه ولا ماجستير، فتلك أبواب غرور تزيد من الغفلة،
فالعالم يضع علمه فى خدمة هواه فتصبح بلواه مضاعفة.

ويمضى من العمر فى سلسلة من الغفلات والإغماءات
مجموعها فى الختام صفر، معبود كل واحد نفسه، وكتابه رايه،
ودستوره مصلحته، فكيف النجاة من هذه الغفلة؟

يقول كاتبنا : النجاة فى الإيمان، القضية قضية إيمان، كيف نرى
العالم، وكيف ننظر فيه، والخلاص أن تكون ذلك العارف الكامل،
الذى لا يرى فى كل شئ إلا الواحد ، ولا يبصر إلا وجه ربه.

ذلك هو الجهاد الصعب ولا اختيار، ولا طريق آخر، فلنسارع
إلى المجاهدة كي لا يمضى بنا كل يوم إلى نقصان، ويكون
محصول حياتنا صفر، أهـ (أناشيد الإثم والبراءة ص ٥٥
وما بعدها).

عبادة الأوثان :

من النبرات الصوفية، عند كاتبنا انتشار الشرك الخفى، فالإنسان مازال يعبد الأصنام، وهو لا يشعر، نحن نسجد ونركع لأصنام لا حصر لها إنما اختلفت الأسماء، وتستترت الأوثان تحت ثياب الألفة ولكنها هي الأصنام بعينها.

عارية أو نصف عارية، من نيران مركزة على النهر ما بين النهدين، فاترينة البضائع الاستهلاكية صنم، الكل يتهدون ويسهرون الليل يصلون لها.

الديكتاتور الحاكم المطلق صنم، ومن حوله بلاط الهتافين، والمصنفين والمنافقين والكذابين، يلقي الأطفال فى مدارسهم أنه الرزاق والمنقذ والمعين يطعمهم من جوع ويؤمنهم من خوف، وعليهم أن يحفظوا كلماته.

وكبير الأصنام يا أخى، هو النفس، عبادة النفس، يقول أحد الصوفية لمريده: لا أذاقك الله طعم نفسك، فإنك إن ذقتها لن تذوق بعدها شيئاً حلوا أبداً، وهذا لمرارتها عند أهل الله، وأنت يا أخى خلقت لتعرف ربك وتعظمه وتعبدته، لا لتحصل جاه نفسك وتعبدتها، ونحن نعبد أنفسنا .

يقول كاتبنا: المرأة تعبد جمالها، والفنان يعبد فنه، والرجل يعبد أناقته، وصاحب الملايين يعبد ملايئته.

وعابد الله لا يكون عبداً لله إلا إذا تحرر من هذه الأصنام جميعاً، هذا هو الدين، أما ما نحن فيه فهو جاهلية وأوثان خفية أقامها عصر المادة فى قلوب الناس.

نقول : لقد ذهب الناس بعيداً جداً فى طريق الله، ومعرفة

■ النبرة الصوفية في إبداعاته الأدبية ■

حقيقة الدين، وما يراه د. مصطفى شرگا خفيًا، هو شرك ظاهر عيانا لأهل الله، الذين يرون أن التفكير في ضرورات الحياة وانشغال القلب بها، نوع من أنواع الشرك، حيث تدخل في قلبك الذي وسع الحق سبحانه وتعالى، صنما من أصنام الدنيا، فكيف يكون الاشتغال بما لا يعنى؟! ونسوق الحكاية التالية ليعرف القارئ أن د. مصطفى يتحدث في بداية البداية في طريق الله، ويعرف أيضا: أين الناس، وأين أهل الله العارفين، وكما يقول النفري في مواقفه ومخاطباته:

«يا عبدي، ميعاد ما بينك وبين أهل الدنيا، أن تزول الدنيا، فترى أين أنت وأين أهل الدنيا».

يقول الإمام أبي القاسم القشيري:

«من خلوص الأحوال ما كان بيني وبين أبي الحسن الخرقاني؛ كان عندي ليلة العيد، وكان نائما، فخطر ببالى لو كان عندنا سمنا لطعمنا اليوم كذا وكذا، وإذا بأبي الحسن وهو في النوم يقول: «ألق هذا السمن من يدك» وكررها ثلاث مرات.

فأيقظته من النوم وقلت له: ماذا حدث؟ وماذا تقول؟

قال: لا شيء. إلا أنى كنت في النوم، كأننا في موضع رفيع، وكانت إرادة الحق أن تظهر أنوار إلهية، ووقعت على الناس، وأنت معنا وبيدك سمن، فصحت بك قائلاً: ألق السمن من يدك أ.هـ. (١) فإذا كان مجرد التفكير في الطعام . منع عطايا الله الخاصة أن تنزل بقلب عبده العارف بالله، فكيف يكون حالى وحالك وبقية الناس من أهل الغفلة، أهل هذا العصر.

(١) ترتيب السلوك في طريق الله. الإمام القشيري. ص ٤٧.

العلم والجهل :

اعلم يا أخى أن أرقى ما يصل إليه الإنسان فى هذه الدنيا، أن يكون عبداً محضاً لله تعالى، وأعلى ما يحصله من العلم، هو العلم بالله ومواطن الآخرة، فهذا هو العلم الذى يلازمك فى قبرك وفى البرزخ ويوم القيامة والحساب وفى الجنة، وأى علم آخر ففائدته مؤقتة، ولذلك أطلق الإمام الغزالي على علم الطب صنعة الطب، وصناعة الهندسة وصناعة الكيمياء، وهكذا.. وهذا من غيرته على لفظ العلم، أن ينسب إلى غير أهله، وإذا كانت علوم الدنيا المفيدة، ستفارقنا عند الموت، فماذا نقول فى الثقافة، التى أصبحت علامة على تنوير أطفالنا، ماهى هذه الثقافة؟ هى إجابة شبابنا على الأسئلة التى توجه إليهم على شاشة التليفزيون الكريمة، وطلعتهم المباركة: من هو أحسن لاعب كرة هذا العام؟ ومن الذى حصل على جائزة الأوسكار؟ وآخر أغنية لمايكل جاكسون ومادوننا؟ ومعرفة اسم المخرجين والممثلين والممثلات والأفلام العالمية التى ينتجها الصهاينة ويسعى شبابنا البائس إلى معرفة هذه المعلومات بقراءة المجلات (إياها) وأصبح المثل الأعلى لأكثر أولادنا، لاعب الكرة، والمغنى العالمى، والمليونير تاجر المخدرات والذين يسكنون الفيلات، ويضعون فوق سطحها (الدش) فكان الله فى عونهم.

ود. مصطفى له نفس الرؤية الصوفية للعلم:

فهو يرى أن علوم الظاهر لا تمثل الحقيقة، فعلم الغرب من كهرباء وذرة والتى تاه علينا بها وتعاضم هى علوم من أمور الدنيا. قال عنهم ربنا ساخراً مهوناً من شأنهم:

﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾

[الروم: ٧]

والعلم بالله هو أشرف العلوم. وهل كان شرف محمد ﷺ إلا

■ النبرة الصوفية في إبداعاته الأدبية ■

بمعرفته لهذا العلم الرفيع، فهو ذروة كل العلوم وأبعدها منالا، لا يباح بأسراره إلا لأهله، وهم خاصة أهل الله، وما أقل هؤلاء في أمة المسلمين وهذا العلم هو الذي سيرفع الله به الغمة وينصر الأمة، ويصحح الميزان في آخر الزمان.

والعارف بالله هو أقوى البشر، لكن أين هو هذا العارف في عصر عجيب، انبهر المسلمون فيه بلعبة اسمها الكمبيوتر؛ نسوا رسالتهم وسال لعابهم على لعبة.

العارفون يا سيدي الفاضل موجودون، لا ينقصون، إذ هم المقصودون من وجود هذا العالم، وهم موضع نظر الله في الأرض، ولكن من البلاء العظيم، الذي عم الكون، وأنزله الله بالناس، جزاءً وفاقا واستحقاقا أخفى الله العارفين وصانهم عن الظهور، فلم يظهر منهم إلا القليل لإرشاد القلة الباقية من أهل الله، المتعطشين لسلوك طريق الله.

ويرى د. مصطفى أننا كبارا وصغارا نجهل حقيقة الأشياء، لكثرة ما ألفناها وتعودنا عليها؛ يرى الابن الشجرة، فيسأل والده: لماذا سميت شجرة يا بابا؟ ويسقط في يد الأب، وينهر الطفل بشدة، رغم أنه هنك ستار الألفة، وما أقرب الفارق بيننا وبين أطفالنا في علمنا ومعارفنا.

ونحن نقول لأستاذنا د. مصطفى محمود: إن الله هو الذي سمى الأشياء وإن كان هو يعرف ذلك، لكنه لا يريد أن يخوض في الحقائق الصعبة لأن مدلول الأسماء من الأسرار الإلهية، ولكن د. مصطفى أثر أن لا يبوح بهذه العلوم لأنه يخاطب عامة الناس، ولكني أرى أن ما دونه العارفون في كتبهم، إذا تمكن أحدنا من تبسيطه ولو بإشارات سهلة لتشويق القارئ إلى سلوك الطريق، فلا مانع من ذلك، والشجرة سميت شجرة من تشاجر فروعها

وأغصانها، بتداخلها في بعضها. فهذا مظهر للشجار، والمشاجرة قال تعالى : ﴿يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ [النور: ٣٤] يقول ابن عربي: هي الأسماء الإلهية، والأسماء الإلهية تتشاجر بمعنى أن بعض الأسماء تضاد الأسماء الأخرى في تأثيرها؛ فالمدل يضاد المعز، والرافع يضاد الخافض، والضار يضاد النافع، وعلى هذا النحو يكون تأثير الأسماء وتضادها، في مرتبة حضرة التعدد والكثرة الكونية أما في حضرة الوجدانية، فالأسماء واحدة، فإله هو الأول والآخر في نفس الأمر، ففي هذه الحضرة لا يوجد تضاد ، وهذا سر قول أبي سعيد الخرار حين سئل: بِمَ عَرَفْتَ اللَّهَ؟ قال: بجمعه بين الضدين. قال هذا الكلام حين وصل إلى هذا المقام، ودخل حضرة الوجدانية، والله أعلم، فنحن نعرض كلام العارفين على قدر فهمنا.

ود. مصطفى يعلم هذا العلم جيدا؛ فمسرحيته عظماء الدنيا وعظماء الآخرة مستوحاة مما كتبه ابن عربي في رسالته عن (المضادة) أي تجلى الأسماء الإلهية الحاكمة على النفس البشرية، وتدور المسرحية حول الاسم الظاهر الغالب على أهل الدنيا، والاسم الباطن الحاكم على أهل الباطن، أهل الله والعزلة والخلوة والتعبد، وهو الكلام الذي ذكرناه آنفا في معنى (الشجرة) وتشاجر الأسماء الإلهية، وأنا مع د. مصطفى أنه علم مضمون به على غير أهله، لكنهم سطروه في كتبهم، فلا يجب كتبه كلية، أما العلم الذي لا ييوح به العارف، ولو قطع إربا، فهو علم آخر، يتلقاه في حضرات إلهية خاصة جدا، ولا يدونه في كتاب ولا ينطق به إلا لعارف في مقامه.

هل الإنسان مسير أم مخير؟

هذه المسألة هي من أمهات العلوم النافعة جداً. ولا أبالغ إن قلت إن لم يكن في إبداع د. مصطفى محمود إلا شرح هذه المسألة وتفهمها للقارئ: لكفاه ذلك، فجميع الناس في حيرة من هذا اللغز، وقد قيل فيه الكثير، الإنسان مجبر في قالب اختيار، الإنسان مخير في إطار إجبار، ما تسأل عنه يوم القيامة أنت مخير فيه، وما لا تسأل عنه أنت مسير فيه، وكلها أقوال لا بأس بها، لكنها لا تحسم الموضوع برأى قاطع.

وأتى إلينا د. مصطفى محمود بفكرته التي اعتبرها من جواهر المعرفة، خصوصاً في هذا العصر، الذي يعيش فيه الناس في حجاب وجهل، إلا ما ندر وكل الناس ترمى بمشاكلها، وأخطائها، وغبائها، وجهلها عنى الله تعالى إذا فشل الإنسان في حياته، وخاصة أهل الطريق الصوفي الجهلة المدعين، إذا فشل الواحد منهم رمي بفشله وجهله وكسله على قضية القضاء والقدر ولا يقه لون هذا من باب معرفة التوحيد الذوقي، ولكن من باب التنصل من تحمل المسئولية، والورطات الدنيوية التي يتسبب فيها الإنسان الأعمى القلب، الحاقد، الجاحد، ثم في النهاية يهز رأسه الذي يحمل عقلاً أحرق ويقول: إحنا في إيدينا حاجة؟ ربنا أراد كده إحنا غلابة، وإذا وقع غيره في خطأ، حمل عليه حملة شعواء، ووضع كل المسئولية على عاتقه. والصوفي المدعى الكذاب، إذا أخطأ، لا يندم ولا يتوب وهذا من هيمنة الشيطان على قلبه وربما ينطقه الشيطان بقول الإمام الجنيد الحفيد حين سئل: ما مراد الله من الخلق؟ فقال: ما هم فيه.

وهذا بحر عميق لا ساحل له، وهناك فرق كبير بين الإرادة والمشئنة وبين الأمر والنهي وكل الأحكام الشرعية، ونحن

مأمورون بتنفيذ الأمر الإلهي، ولسنا مأمورين بمناقشة مسألة الإرادة والمشية، فقد أراد الله وجود الكفر والضلال والمرض، والنقص، وأمرنا بالتوحيد والإيمان والهداية، والسعى في الشفاء، وبلوغ درجات الكمال، ولا يفهم هذه الحقيقة إلا من تبحر في علوم الكتاب والسنة وعرف الحقائق الإلهية، أما بدون ذلك. فعلى كل واحد أن يقف عند قدره ويكف عن الناس شره.

ود. مصطفى يقول بالاختيار.. وإن الإنسان مخير إلى درجة كبيرة ويعتمد في فكرته هذه على علوم العارفين الأكابر، وقبلها على الكتاب والسنة ويبدأ كاتبنا بشرح فكرة (الأعيان الثابتة). فيقول كما قال الله، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [٨٥- الحجر].

أي ما أعطينا كل خلق نوعيته، إلا لأنه قبل ذلك، ونفسه لا تقبل غير صورته؛ فالخنزير لا يقبل إلا هذه الصور الخنزيرية، وإبليس لا يصلح إلا للغواية، والإنسان العارف بالله، استعداد لهذه المعرفة بنفسه وهو (عين ثابتة) وهكذا بقية المخلوقات.

ويقول تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب- ٧٢]

كان كل شيء بعرض، وكل شيء باختيار، وكأنما كانت كل الحقائق معروضة، واختار كل شيء حقيقته، فقبلت بعض النفوس الحقائق الملكوئية، وقبلت النفوس الأخرى الحقائق السفلية التي تشاكلها. ود. مصطفى محمود يعتمد في فكرته على علوم ابن عربي اللدنية، والتي ذاقها في حضرات عروجه الروحي وحيث رأى وشاهد وذاق هذه العلوم، ويقول بها عن يقين. يقول ابن عربي: النفوس كلها كانت أعيانا في العدم، ولها تشخص أزلي

قديم لا يعلم به إلا الله تعالى، وأعطى الله كل شيء اللمسنة الوجودية التي يستحقها، وكلام ابن عربي لا يمكن إدراكه عن يقين إلا بالوصول إلى مقام هذا العارف الكبير. وهناك فرق كبير بين القول بقدوم النفوس وقدام الله، ولا مقارنة مثلما لا توجد مقارنة بين قدرة العبد وقدرة الله وكلام العبد وكلام الله؛ فكل إنسان إذن اختار نفسه بكامل حريته، ويقول ابن عربي: من أطلع كشفا على هذه الحقيقة، وهي حرية الاختيار، فلا يمكن أن ينكرها؛ فالإنسان مخير إلى درجة كبيرة، وقد اعتمد د. مصطفى في مسرحيته (زيارة للجنة والنار) على حقيقة (الأعيان الثابتة) وسوف نتعرض لها حين نتحدث عن التصوف الخالص.

وإذا كنت يا أخي من أهل التوحيد والمعرفة والإيمان بالله تعالى فهل تتصور أن يجبرك الله على فعل شيء، ثم يعذبك على فعله إن كان سيئاً؟ هذا الأمر لا يفعله إنسان مؤمن صادق، فكيف يفعله الله تعالى؟ ولكن الإنسان لا يلوم نفسه ولا يراجعها.

ويقول د. مصطفى في تأثير البيئة على الإنسان: الناس يقعون في خطأ أولى منذ البداية حينما يقيمون علاقة حتمية بين البيئة والسلوك، وبين تقاليد الأسرة وتكوين الشخصية، وهو تفكير خاطئ، فلا توجد حتمية في الأمور الإنسانية بل ترجيح واحتمال؛ الابن الذي ينشأ في عائلة محافظة محتمل أن ينشأ محافظاً هو الآخر هذا مجرد احتمال وكثيراً ما يحدث العكس فنرى هذا الابن وقد تمرد على التقاليد التي نشأ عليها، وهذا هو الفرق بين المسائل الميكانيكية الآلية، والإنسان، فالإنسان ليس كتلة هلامية سلبية تشكلها حتميات البيئة ولكنه إرادة صلبة لها حريتها.

وضغوط الظروف هي دليل على وجود الحرية وليس العكس،

ففى عالم بلا عقبات لا يسمى الإنسان حراً. فالحرية تكشف نفسها من خلال العقبات. والإمام أبو حامد الغزالي يقول: إن الله مخيرٌ مطلق التخيير، والمادة الجامدة مسيرةٌ منتهى التسيير، والإنسان فى منزلة بين المنزلتين. أى أنه مخيرٌ بمقدار ومسيرٌ بمقدار.

(فالإنسان حر مطلق الحرية فى منطقة السريرة والنية أى القلب وهذه المنطقة حرة، حررها الله من كل القيود ، ورفع عنها الحصار ووضع جنده خارجها، فلا يدخل الشيطان قلبك إلا إذا دعوته وفتحت له الباب، وقد أراد الله هذه النية حرة ، لأنها مناط المسئولية والمحاسبة، أما المنطقة التى يتم فيها التدخل الإلهى عن طريق الظروف والأسباب، يمهّد الله أسباب الشر للأشرار، ويمهّد أسباب الخير للأخيار، كل واحد حسب نيته؛ فالله يستدرج الإنسان بالأسباب حتى يخرج ما يكتمه ويفصح عن نيته.

وفى إمكان الواحد منا أن يبلغ ذروة الحرية، بأن تكون إرادته هى إرادة الله، واختياره هو اختيار الله، وعمله هو أمر الله وشريعته، وهذا هو العبد الربانى الذى يقول للشئ كن فيكون، وكما نعطى نحن من ذات أنفسنا لمن نحب، كذلك يعطى الله من ذاته لأحبابه فيحقق لهم ما يشاءون ، فيكونون الأحرار حقاً) أ.هـ. (الشيطان يحكم ص ١٥٥ وما بعدها).

العذاب السارى فى الكون :

يقول ابن عربى فى أكثر من موضع فى فتوحاته، لفظ (العذاب) يمكن إطلاقه على التعذيب والألم والمعاناة، ويمكن إطلاقه على التنعم واللذة بمعنى عذب، فقولنا ماء عذب أى جميل وبارد حين نشربه فيروى العطش، ويذهب د. مصطفى إلى هذا المعنى بقوله إن العذاب يعم جميع الناس، والراحة هى موقف النفس من

هذا العذاب ويمنتهى البلاغة والبساطة والواقعية يقول:
الذى يسكن الصحراء يشكو لأنه لا يجد الماء
وساكن الزمالك الذى يجد الماء والنور والتكليف والتليفزيون
يشكو مر الشكوى من سوء الهضم والسكر والضغط.
والمليونير ساكن باريس يشكو مر الشكوى من سوء الهضم
والسكر والضغط.

والذى أعطاه الله زوجة جميلة يشك فيها ولا يعرف طعم
الراحة.

ففى كل طبقات البشر تجد نفس الحال، كلنا نخرج من الدنيا
بحظوظ متقاربة، والأغنياء والفقراء محصولهم من السعادة
والشقاء متقارب؛ فالله يأخذ بقدر ما يعطى.

ولو دخل كل منا قلب الآخر لأشفق عليه، ولما شعر بحسد أو
بحقد ولا بزهو ولا بغرور.

والمغتربون والفرحون مخدوعون فى الظواهر غافلون عن
الحقائق، والعذاب قاسم مشترك بين الكل.

سألت: د. مصطفى: ولكن هناك ناس سعداء وآخرون أشقياء؟
قال: السبب اختلاف موقف النفس من هذا العذاب والبلاء.

فأخذت أبحث فى مؤلفاته عن هذه الفكرة، فوجدت أنه شرحها
شرحاً وافياً وأوضحها بما فيه الكفاية.

يرى د. مصطفى، أن السعادة والشقاء يكمنان فى موقف
الإنسان من الدنيا؛ هناك نفس تعلو على الشقاء وتتجاوزه وترى
فعل الله فى كل شئ.

كما يقول الإمام عبد الكريم الجبلى فى عينيته المشهورة:
فكل قبيح إن نسبت لفعله أنتك معانى الحسن فيه تسارع
يُكْمَلُ نقصان القبيح جماله فما ثم نقصان ولا ثم باسع

وهذا موقف نفس الإنسان العارف الكامل الذى يرى تجليات الله فى الكون.

ونعود لكلام د. مصطفى يقول:

هناك نفوس تمضغ الشقاء وتجتره وتحوله إلى حقد أسود وهى النفوس المظلمة المحجوبة، الكافرة بخالقها المتمردة على أفعاله، وكل نفس تمهد بموقفها لمصيرها النهائى فى العالم الآخر. وما تفاضلت النفوس إلا بمواقفها، لا بما يدور على الوجوه من ضحك وبكاء، فذلك هو المسرح الخادع الظاهر والثياب التنكرية التى يرتديها الناس، أما على مسرح القلوب وفى كوامن الأسرار، فلا يوجد متختم ولا محروم، بل عدل مطلق واستحقاق نزيه يجرى على سنن ثابتة لا تتخلف.

حيث يمد الله يد السلوى للمحروم والمسكين، واليتيم، ويقبض ويخفض ويطمس على بصائر المترفين الغافلين، ويؤرق عيون الظالمين، وتلك هى الرياح الخفية التى تهب من الجنة أو من الجحيم، وأهل الله فى راحة لأنهم رأوا فى أفعال الله عدلاً مطلقاً، هم فى راحة القلب والعقل فأنمر لهم ذلك راحة البدن.

أما أهل الغفلة وهم الأغلبية الغالبة، فيقتلون بعضهم بعضاً من أجل لقمة أو امرأة ومن أجل درهم وفدان أرض ولا يتجمعون إلا مزيداً من الهموم والخطايا، فانظر من أى طائفة من هؤلاء أنت وأغلق عليك بابك وابك على خطيئتك.



د. مصطفى محمود

والتصوف



التصوف

الخالص

في

مؤلفاته

يقول د. مصطفى محمود في حوارى معه:
من شيوخى المستورين أو كما يقولون (حال
الوجدنة مع هؤلاء الشيوخ...) الشيخ الأكبر ابن
عربى، والنفرى، وابن عطاء الله السكندرى، ويميل
د. مصطفى إلى مذهب الوسطية والاعتدال فى الدين،
ويمقت المغالاة والشطط والتطرف، وحين أهديناه كتب الإمام الرائد
محمد زكى إبراهيم، كان أول كتاب يتناوله ويبدأ فى قراءته كتاب
(الفروع الخلافية ومشروعية العمل بأحد الوجهين فيها بلا
تصعيب ولا تأثيم)^(١)، وهو كتاب يبين سماحة الإسلام ويسره
واحترام الخلاف البناء ونبذ الخلافات التى لا قيمة لها وهو كتاب
من القطع الصغير فى ١٢٥ صفحة لا غنى عنه لكل مسلم فى
العصر الحاضر، الذى يموج بانقسام المسلمين، إلى جماعات
وفرق، وانتشار الخلافات على أقل الأمور أهمية، وهذا ما يكافح د.
مصطفى محمود بقلمه من أجل حل هذه المشكلة الخطيرة جدا التى
أدت إلى كل الكوارث فى الدول الإسلامية، وسنبداً هذا الفصل
بكلمات موجزة عن الطريقة الصوفية التى أخذ د. مصطفى العهد
من أحد شيوخها، تبركا وليس سلوكا، وهى الطريقة النقشبندية.
ونقوم بالتعريف بالشيوخ الذين تأثر بهم د. مصطفى محمود،

(١) الفروع الخلافية - الإمام محمد زكى إبراهيم، تقديم وتعليق محيى الدين الاسنوى -
مطبوعات العشيرة المحمدية ١٩٩٥م

حتى يكون القارئ على بينة من مصادر التصوف، التي استقى منها كاتبنا ، فكره الصوفي، وهذا ليس من اختياره ولكنه اختيار الله له، فهو من أصحاب التفويض والتسليم لله، في كل شئون حياته.

الطريقة النقشبندية :

نقشبند ، كلمة فارسية معناها النقش في القلب، أى نقش ذكر الله في القلب، ومدارها على اتباع الكتاب والسنة مثل كل الطرق الصوفية، ومحورها الذكر القلبي مع صمت اللسان وهذا الذكر يلتزم به د. مصطفى محمود حتى الآن، وهى طريقة مشهورة بالتربية الأويسية، حيث لا يرى المريد شيخه في عالم الأجسام ويستمد منه روحيا مثلما كان يستمد أويس القرنى (رضى الله عنه) من روح الرسول ﷺ دون أن يراه وحدث هذا الأمر للكثيرين من أهل الله؛ فابن عربى استمد من شيخه أبى مدين الغوث، ورغم أنه كان معاصرا له، فإنه لم يلتق به، ذكر الشيخ ذلك فى الفتوحات وفى رسالة روح القدس، والطريقة النقشبندية لها أكثر من إسناد، فالسند الأول متصل بسيدنا على بن أبى طالب كرم الله وجهه ويتنزل التسلسل حتى معروف الكرخى، ثم أبو على الروزبارى يليه أبو القاسم الجرجانى، ثم أبى على الفارمدى.

والسند الثانى يبدأ من الرسول ﷺ إلى أبى بكر (رضى الله عنه) ويتنزل السند إلى أبى يزيد البسطامى وقد رباه الإمام جعفر الصادق تربية أويسية روحية، فقد توفى الإمام جعفر الصادق عام ١٤٨ هـ وقبل أن يولد أبو يزيد بأربعين سنة وأخذ أبو الحسن الخرفانى الطريقة من روحانية أبى يزيد دون أن يقابله فى عالم الأجساد، ويتسلسل الإسناد إلى أبى على الفارمدى إلى يوسف الهمدانى إلى عبد الخالق الغدجوانى الذى قابل الخضر

عليه السلام وعلمه الذكر القلبي الخفى لا إله إلا الله مع حبس النفس وقت الذكر ثم محمد بهاء الدين نقشبند، ثم ضياء الدين خاله النقشبندى. والذي نشر الطريقة في مصر هو الشيخ محمد أمين الكردي الذي ولد في أربل بالعراق في النصف الثاني من القرن الثالث عشر الهجري، ومن أراد أن يعرف المزيد عن الطريقة النقشبندية فعليه بكتاب (المواهب السرمدية في مناقب السادة النقشبندية) لمؤلفه. نجم الدين الكردي ط ١٩٧٨.

والطريقة النقشبندية هي التي ينتسب إليها د. مصطفى محمود.

١ - أبو عبد الله النفري :

هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله النفري، ونفّر بلد من نواحي بابل بأرض الكوفة بالعراق، ولم يرد مولده في أى كتاب ولم يؤلف كتابا ولكنه كان يكتب كشوفه الروحية على قصاصات من الورق جمعها حفيده لابنته ورتبها، فالشيخ نفسه لم يرتبها، ولو رتبها لجاءت أفضل من ترتيب حفيده.

كان النفري زاهدا، ضاربا دوما في الصحراء . كثير الأسفار، يعتمد التخفى والابتعاد عن الناس ، يميل إلى الوحدة، ولا يسكن إلى إنسان ولا يكشف شخصيته لأحد . يقال إنه توفي في إحدى قرى مصر.

والاسم المكتوب على كتاب (المواقف والمخاطبات) المنسوب للنفري، هو اسم حفيده (محمد بن عبد الجبار بن الحسن النفري)، وليس اسم الشيخ نفسه.

ولا نعرف شيئا عن أسرة النفري أو شيوخه وكل ما نعرفه أنه عاش في القرن الرابع الهجري وكان إماما بارعا في كل العلوم.

ويقال إن الطريقة السبعينية التي تنسب إلى عبد الحق بن سبعين تتضمن في إسنادها الإمام النفري، وتوفى النفري عام ٣٤٥ هـ وقد شرح كتاب المواقف والمخاطبات، الشيخ عفيف الدين التلمساني (٦١٠ - ٦٩٠ هـ).

وأسلوب النفري شديد الرمزية يصعب فهمه وإدارك مراميهِ وللنفري غير كتاب المواقف والمخاطبات المشهور مقالات ورسالات وأشعار نشرها الأب بول نويّا ضمن كتابه (نصوص صوفية غير منشورة) سنة ١٩٧٣ وقد قام الدكتور مصطفى محمود بتقريب كتاب المواقف والمخاطبات للقارئ الخاص في كتابه (رأيت الله) وألحق به، المقالات التي نشرها الأب بول نويّا، وكل المعلومات التي ذكرناها عن النفري سلفاً، اختصرناها من كتاب تجريد التوحيد للنفري، وهو رسالة دكتوراه للدكتور جمال المرزوقي نشرتها دار الزهراء للإعلام عام ١٩٩٤.

٢ - الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي :

ليس في حاجة إلى تعريف لكثرة ما كتب عنه، ولكن لا بأس من تعريف من يعرف ومن لا يعرف، مقام ابن عربي ودرجته ورتبته في الولاية، من خلال سردنا لكلامه هو عن نفسه من باب التحدث بنعمة الله عليه وما سنذكره الآن نقلناه من كتاب الفتوحات المكية ورسالة روح القدس وكتاب الأستاذ محمود الغراب (الشيخ الأكبر: ترجمة حياته من كلامه) والأستاذ محمود الغراب يقوم بالتحقيق العلمي الدقيق جداً لمؤلفات الشيخ الأكبر، ومتخصص في ابن عربي بالذات. ولشدة تحريه الأمانة العلمية والتدقيق، قال : إن كتاب فصوص الحكم، به كثير من الكلام الذي لا يقول به ابن عربي، بل ذهب إلى أبعد من هذا فأنكر نسبة الكتاب للشيخ الأكبر، رغم شهرة الكتاب، وبعد أن يعرف المنكرون على

ابن عربى أحواله ومقاماته، فليضحكوا ، أو يبكوا فهذا شأنهم. ولا أهمية له، إلا أن يعود أحدهم إلى صوابه ولا أحسب أن يحدث هذا، ولكننا ذكرنا هذا الكلام ليعرف الجهلة، وديدان الأرض وأصحاب البطون الممتلئة بما تعرف. المنكبون على حطام الدنيا من هو ابن عربى؟ هو محمد بن على بن محمد العربى الحاتمى الطائى المعروف بابن عربى ولد ليلة الإثنين ١٧ رمضان عام ٥٦٠ هـ فى مرسية بالأندلس (ونكرر أن كل ما نذكره الآن هو من كلامه عن نفسه وليس فيه كلمة واحدة لغيره) ولكننا نذكر الكلام بطريقة الحديث عنه حتى يسهل على القارئ استيعابه، ونواصل كلامه عن نفسه: كان منذ نشأته محبا للأولياء يدافع عنهم ويرحل إليهم ليجتمع بهم، فرحل إلى أشبيلية وقرطبة وتلمسان وفاس وسبته والقاهرة والقدس والمدينة المنورة ومكة المكرمة، وحلب وبغداد وقونية، واستقر فى دمشق فى نهاية حياته، لا يروى حديثا إلا مسندا إلى صاحبه سماعا متصلا حيث سمع أحاديث البخارى ومسلم والترمذى وأبى داود وغيرهم من المحدثين، اجتمع بالفيلسوف ابن رشد وأئمة الكلام فى عصره، وطالع كتب الأدب والشعر العربى والتاريخ وكل أصناف العلوم، واجتمع بجميع طبقات الأولياء الأحياء فى زمانه القطب الغوث والإمامين والأوتاد والأبدال والنجباء والنقباء والرجبيين.... إلى آخر مراتب الأولياء. يقول:

ما من مقام فى الولاية إلا وتحققت به ذوقا وتمكينا، وأطلعنى الله على جميع الأقطاب باسمائهم إلى يوم القيامة، وامتنعت عن ذكرهم، واجتمعت بالخضر عليه السلام وروحانية سيدنا عيسى عليه السلام وتبت على يديه فى بداية سلوكى، وهو الذى أمرنى بالتجرد من الدنيا قبل دخولى الطريق وفتح الله علينا بفتوح

العبارة والحلاوة والكشف التي تشمل الفتح لكبار الأولياء، ورأينا الكرامات بجميع أنواعها من تسبيح الجماد ونطق الجوارح وكل ما يخطر ببال أهل الله. وشاهدت الملائكة وسألت الله تعالى أن يحجبهم عني.

وهو وارث محمدى كامل دخل كل الحضرات الإلهية. وذاق القرآن نزولا على قلبه قرآنا وفرقانا بالطريقة التي لا يعرفها إلا كبار العارفين ونال البشرى من الله في الحياة الدنيا سنة ٥٩٣ هـ. وهو في فاس وقال عن هذه البشرى: شاهدت ما لا يمكننى النطق به. ورأى ليلة القدر كثيرا، وحدث له أسراء روحى أفرد له كتاب (الإسراء إلى المقام الأسرى)، ورأى فى واقعة جميع الأنبياء وجميع المؤمنين.. وقرأ القرآن على سيدنا إبراهيم عليه السلام فى واقعة، وأعطاه سيدنا موسى عليه السلام علم الكشف والإيضاح. وحصل مقام القربة الذى هو بين الصديقية والنبوة عام ٥٩٧ هـ. ولم يجد شيئا يشرح له هذا المقام، فشرع بوحشة، فرأى أبا عبد الرحمن السلمى وقد تجسدت روحه وقال له: هذا مقام القربة وقد قبضت أنا فيه، واجتمع بروح القطب الغوث أحمد السبتي بن أمير المؤمنين هارون الرشيد وهو يطوف بالكعبة.

ومن مؤلفاته:

الفتوحات المكية ويقول عنه: هذا الكتاب مع طوله واتساعه وكثرة فصوله وأبوابه ما استوفينا فيه خاطرا واحدا من خواطر الطريق، فكيف الطريق؟ وما نودع فى كل باب إلا نقطة من بحر. ويقول عنه أيضا: ما أبرزناه إلى ما عندنا قشر. وأنا أخاطب بكلامى المؤمنين الذين اشتغلوا بتصفية أنفسهم وتحققوا بالذل والعبودية والافتقار فى جميع الأحوال، وماعدا هؤلاء فهم بأنفسهم لأنفسهم ليس لله منهم شئ فلا كلام لنا معهم، فإنهم

جاهلون، فكلامنا مع أهل الطريق لا مع غيرهم، فإن الله أطلعنا على أسرار تجهلها أكثر الخاصة فما بالك بالعامّة، والله ما كتبت في الفتوحات حرفاً إلا عن املاء إلهي وإلقاء رباني أوثقت روحاني في روع كياني، ولا نشتغل بالرد على أحد من خلق الله المعترضين علينا بل نقيم لهم العذر في ذلك للاتساع الإلهي.

ومؤلفات الشيخ تبلغ حوالي نيفاً وأربعمئة مصنف، بقي منها مائة وخمسون والباقي مفقود: نذكر منها، فصوص الحكم- الإسرا إلى المقام الأسرى - مواقع النجوم- التدبيرات الإلهية- إنشاء الدوائر- عقله المستوفز- تحفة السفارة إلى حضرة الكرام البررة- رسائل ابن عربي- تاج التراجم- الجواب المستقيم رسالة روح القدس. ومن الشعر: ديوان ترجمان الأشواق ديوان الديوان الأكبر- ديوان الأشواق... إلى آخر مصنفاته رضى الله عنه ويقول د. مصطفى محمود:

قرأت لمشايخ أفاضل ولكتاب إسلاميين هجوماً على ابن عربي وعلى فكره وشطحه، وفي يقيني أن الرجل عظيم ولا شك، وهو قمة في فكره وصوفيته والذين هاجموا لهم عذرهم، فهو بحر متلاطم يفرق فيه الملاح وتغوص فيه العقول فتخرج بالدر أو تهلك ولا يكون لها نجاة .

وكتب الرجل هي للخاصة وخاصة الخاصة وهي زاد للخائفين والمحبين والعاشقين والمشغولين بربهم.

والآلوف الذين يدخلون الإسلام من الأوروبيين بابهم الوحيد إلى الإسلام هو ابن عربي لأنه يلتقى مع روحهم الصوفية.

ونظرية ابن عربي عن العدم والأعيان الثابتة في العدم هي من أعمق ما كتب [عالم الأسرار ص ٣١].

وفي حوارى معه عن ابن عربي قال:

الذى يهاجم ابن عربى، يجب أن يكون ندا له، قد وصل إلى مقامه ودرجته فى الولاية، فإن لم يكن هكذا فليس له أن يدخل فى هذا المجال.

وفى السبعينات حين بدأت الهيئة القومية للكتاب فى طبع كتاب الفتوحات وقف أحد أعضاء مجلس الشعب ممن يتوهمون العلم بالدين، وطالب بوقف طباعة الكتاب لأن ابن عربى يجعل من الأسماء الإلهية آلهة لها تأثير فى الكون. ورد عليه د. مصطفى محمود فى مقالاته بجريدة الأهرام. وشرح ما يقصده الشيخ الأكبر بتجليات الأسماء، وقال بأسلوبه الخفيف الظل وتهكمه المحبب إلى كل القراء: ليست وظيفة عضو مجلس الشعب أن يتحدث عن ابن عربى الذى حار فيه أساتذة فى جامعات الشرق والغرب، أنفقوا حياتهم فى دراسته ولم يفهموا حقيقته، على هذا العضو ألا ينظر فى الفتوحات، بل ينظر فى المجارى الطافحة وأكوام الزباله فى شوارع القاهرة ومداخلها ينظر فى مشكلة طابونة تخبز العيش للجياع من الناس، فى شارع ملئ بالحفر والبالوعات المكشوفة... إلى آخر مقالاته.

٣ - تاج الدين ابن عطاء الله السكندرى :

هو قطب العارفين ومرشد السالكين، أحمد بن محمد بن عبدالكريم بن عطاء الله. كان مالكي المذهب، وسلك الطريقة الشاذلية على يد سيدى أبى العباس المرسى. وكان أعجوبة زمانه، فقد جمع أنواع العلوم من تفسير وفقه وصرف ونحو وأصول وغير ذلك.

قال له شيخه أبو العباس المرسى: والله لئن لزمت لتكونن مفتيا فى المذهبين. وله مؤلفات عظيمة منها الحكم العطائية، التى شرحها ابن عباد الرندى وأحمد بن عجيبه وشيخ الإسلام عبدالله الشرقاوى، وأحمد بن زروق، وشرحها شعرا نور الدين

البريفكانى وأعجب بها المرحوم الشيخ محمد الغزالي، وقال: إن الحكم من أفضل كتب التصوف. وله أيضا كتاب التنوير في إسقاط التدبير، ومفتاح الفلاح وهو كتاب يبحث في الذكر ومراتب الأسماء الإلهية. ولطائف المنن، وعنوان التوفيق وهو شرح لقصيدة أبي مدين الغوث التي خمسها ابن عربي وتاج العروس، والقول

ياقوت المرشنى بعد رغبته شيخه أبي العباس الأرسنى، وذكر شيخنا محمد زكى إبراهيم المناظرة التاريخية التي جرت في الجامع الأزهر في كتابه أصول الوصول ج ١ ص ٢٩٩، وأفرد له في الترجمة، د. أبو الوفا التفتازانى في كتاب (ابن عطاء الله السكندرى وتصوفه).

وبعد أن ذكرنا الشيوخ الثلاثة الذين تأثر بهم د. مصطفى محمود نبداً بتناول حديثه عن خلاصة التصوف والسلوك. وهو يتحدث عن ذلك بأسلوب سهل، ومُبسط، يستطيع فهمه أهل الطريق الصوفى والمؤمنون من عامة القراء.

منهجه في التأليف :

يبدأ د. مصطفى محمود، الذى أنزل الله فى قلبه الرحمة بالعباد، ووقاه شر الصلف والعناد، وأبعده عن الضلال والفساد. يبدأ ترتيب مؤلفاته كما تبدأ الأم بإرضاع طفلها، ثم تقطمه، ثم تعطيه الغذاء المناسب. ولا أحسب أن هذا المنهج من عند نفسه، بل من تدبير الله وعنايته به، فهو يبدأ بالإنسان البائس اليائس، والجاهل الغافل، صاحب العمر الكبير والقلب الصغير، فيبدأ بالقصص والروايات والمسرحيات والمقال الأدبى، بطريقه سهلة الفهم مشوقة جذابة، مسرحية المسيح الدجال، هى نفس فكرة

مسرحية زيارة للجنة والنار ولكنه في الأولى لم يتعرض لفكرة الأعيان الثابتة وأن العلم تابع للمعلوم، لأنها فكرة صوفية صعبة الفهم. ثم يأتي في المسرحية الثانية فيعرض الفكرة بإسهاب، ولكنه يقف بالقارئ عند حدود فهمه فلا يتعدى الحديث في النفس اللوامة، ولما سأله لماذا لم تختار النفس الكاملة؟ أجاب: لأن أغلب الناس لا يعلمون مراتب النفس، ومبلغ علمهم النفس اللوامة لذلك اخترتها.

وهو يبدأ رحلته في التأليف بمخاطبة العقل. والقلب بدرجة قليلة فلا عجب أن تراه في (حوار مع صديقي الملحد) يلجأ للمنطق والقياس والبراهين المادية والأدلة، ثم تراه في (رأيت الله) و(السر الأعظم) على النقيض من ذلك تماماً، فلا وجود لمنطق أو عقل، بل حديث إلى القلب والروح والسر لأنه يتحدث هنا عن عالم منطقته غيبى وعقله قلبى، عالم خارج عن حدود المادة، والعقل معقول مربوط في عقاله، لا يستطيع أن يدخل هذه المنطقة. والدكتور مصطفى صاحب رسالة ملتزم بها، ويعرف ما عليه، ويقدر الأمانة التي حملها الله إياها، فهو لا يعيش لهواه، ولا يكتب ليفرغ أزمة نفسية ذاتية أو معاناة عاطفية، يتخلص منها بالكتابة، ولا يهتم إلا الفائدة التي تعود على القارئ كما يفعل أغلب المبدعين الغارقين في ذواتهم، بل كلهم إلا ما ندر. ويحاول أن يكون واضحاً مفهوماً، ولذلك كان طبيعياً جداً أن يرفض مذاهب العبث واللامعقول والسيرالية وما شاكل ذلك من المذاهب الفنية والتي لا يجنى القارئ منها أية فائدة.

ونحن معه في ذلك؛ فالغرض من الكتابة هداية القارئ إلى الطريق المستقيم وتوضيح الحقائق وحل المشاكل بتقديم عروض لها وحلول ممكنة التنفيذ وشفاء الأمراض النفسية والقلبية بالمفهوم الإسلامى، وهذا الشفاء لا يحتاج إلى عقاقير طبية،

وتحليل نفسي. بل يحتاج إلى غرس الصفات المحمودة في القلب، ومحو الصفات الذميمة، ود. مصطفى يوضح هذا الأمر للقارئ بكل وسائل التعبير.

وبعد أن يمضى بنا د. مصطفى في رحلة الحياة المادية، ويصعد بنا (على خفيف) إلى رحاب الحياة الروحية، يدخل بالقارئ إلى ساحة الحقائق الإلهية من باب التمسك بالكتاب والسنة، ويصل إلى مقصده، وهو تعريف القارئ بالحقائق الثابتة، وما هو الهدف من وجوده، وماذا عليه أن يفعل. ففي حديثه العلمي عن الآيات الكونية في القرآن، يأخذ بيد القارئ خطوة خطوة، ففي قوله تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا، لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ يتحدث د. مصطفى عن غزو الفضاء والمركبات الفضائية، والأقمار الصناعية فيعترض الصوفي على كلامه، فإذا تابع مؤلفاته، شفى غليله وأراحه ووضح له المفهوم الحقيقي من الآية. فيقول:

العارف هو الذي ينفذ من أقطار السموات والأرض بعد تصفية النفس وتطهيرها وإعدادها للمشهد الأعلى والخروج من عالم الكثرة، ولا يكون ذلك باجتهاد أو علم نقلى أو كسبى، وهذا هو المعراج إلى حضرة الرب، وهو حظ النبي ﷺ والعلماء الوارثين على قدمه^(١).

ليس من عندي :

ود. مصطفى محمود يعترف صراحة، أنه يقول بما قال به العارفون بالله أصحاب المقامات العالية، والكاتب الذي صنّف كتاب (شطحات مصطفى محمود) رجل مغفل جاهل لا يعرف ما هي الشطحات، فالدكتور مصطفى لم يقل: أنا الله. ولم يقل: سبحاني،

(١) السر الأعظم ص ٨٢.

ولم يقل: ما في الجبّة إلا الله ونحو هذا مما قاله أهل الله في حالات السكر.

ومن حذر كاتبنا وتقديره لكلام العارفين بالله، نجده لا يتدخل ولا يمزج كلامه بكلامهم، بل يشرح كلامهم ويقول في تواضع: أنا أتكلم على قدر فهمي. وكل إنسان يشرب على قدر وسع فمه.

.....

ولن نرجع إلى التبسيط كعادتنا في كتيبنا. التبسيط يتنصّل التصرف في المادة المعروضة، ولسنا أحراراً في هذه المادة، إنما نوردّها كما استقينّاها من منابعها. وأصحابها قد أوردوها علينا كما ألقيت إليهم بكرًا من مصادرها العليا، فنحن أمام علم ضنين، التبسيط فيه إخلال وابتذال، وعبارات الصوفية هي تذوق لما لا يُقال، فهي تعبّر بالإشارة والإيحاء، فمن وهبه الله الذوق التقط الإشارة، وترجم العبارة، ومن حرم الذوق فاتته الإشارة وأبهمت عليه العبارة. جفت الأقلام وطويت الصحف.

النفس والجسد :

يرى د. مصطفى محمود أن الصحة في مرحلة الشباب طاقة هائلة، وثروة عظيمة لا يشعر بها إلا أصحاب الشيخوخة. ولكن هذه الطاقة تذروها رياح الغفلة واللهو، ويحذر الشباب من ضياع هذه الفترة من الحياة في عدم السعي إلى معرفة الله.

ويرى د. مصطفى أن مأساة الإنسان، تكمن في عدم التوازن بين نفسه وجسده، فحينما يضعف البدن لا تموت الشهوة. وحينما يضعف البصر لا تضعف الرغبة في الرؤية وإنما العكس، تسقط الأسنان فتزداد الرغبة في المضغ وتبدأ المهزلة.

ويقول في (كتاب الإسلام ما هو؟) ص ٧٧ وما بعدها:

من لم يؤدب شبابه لن يستطيع أن يؤدب شيخوخته، ومن لم يتمرس على كبح نفسه صبيا لن يقدر على ذلك كهلا، وسوف تتحول لذته وتصبح عين مهانته إذا طال به الأجل.

والجسد يشيخ ويهرم، ويتحول الفساق العتاة، فيصبح الواحد منهم طفلا يتبول على نفسه ويحبو ويتهته، وبعد أن كان وجيها وله شأن يصير عالة وععبئا ثقيلا وكومة من القمامة يتهرب منها الكل. لا يزوره أحد ويموت كأنه دابة نفقت في حفرة [وهذا ينطبق على أهل الدنيا وليس على أهل الله].

والسر في هذه المأساة أن النفس لا تشيخ ولا تهرم فهي من جوهر آخر لا يطرأ عليه التحلل والفساد. فالسائق ما يزال محتفظا بجميع لياقته وسيظل شابا على الدوام، وإن كانت العربية الفاخرة قد صدئت وأصابها التلف، وتلك مهزلة الشيخوخة. نفس مازالت بكامل رغباتها، وشهواتها، وجسد مشلول لم يعد يطاوعها.

ويقول أهل الله: (إزالة التعلقات بعد فناء الآلات من المحالات) وأهل الله فهموا أن الجسد ما هو إلا سلالم للصعود والهبوط؛ فالمعدة عضو أكل لكنها عضو صيام، وجهاز التناسل عضو جماع ولكن عضو عفة، وتلك فرصة إزالة التعلقات أيها الشاب المبتدئ في السلوك. وسوف تضيق هذه الفرصة بالشيخوخة والأجل المحدود. والنمو الروحي يحتاج لهيكل مادي يعرج عليه صعدا؛ فالجسد محراب الروح. فالجسم قنديل يمكن أن يشع فضيلة: والنظر إلى الجسد باعتباره خطيئة، نظرة غير إسلامية. وفي هذا المجال لا ينتهي الكلام.

التصوف خلوة وجلوة :

يرى د. مصطفى محمود أن الصوفية هم خاصة الخاصة. وقلة

القلة من القادرين على جهاد النفس ومخالفة الهوى والسلوك في بحار الغيوب واستطلاع الأعماق والأسرار، وقد أراد الله أن تكون كثرة الناس من أهل الغفلة ليشغلوا بعمارة الدنيا، واستصفي القلة وقلة القلة لنفسه.

ويرى أن الرسول ﷺ عاش الصوفية في غار حراء في عزلة، والأنبياء قبل الرسول ﷺ عاشوا التصوف، فعيسى عليه السلام يعتزل الناس في خلوة، وموسى عليه السلام يختلي أربعين يوما تنفيذا لمشية الله كي يتأهل ويستعد ويصلح لنزول الألواح عليه.

(فالجانب الصوفي كان دائما جزءا لا يتجزأ من النبوة، لكن الأنبياء هم كُمل البشر، فجمعوا بين الفكر والعمل وهذا الكمال لا يتيسر للكثيرين وإنما نجد في الكثرة طغيان جانب على جانب. فهناك صوفي متأمل يؤلف الكتب مثل الغزالي والجيلي، وهناك صوفي صاحب عمل وفعل وقيادة كعمر وأبي بكر وخالد بن الوليد رضي الله عنهم) أ.هـ^(١). ويرى أن القرآن لا يخلو من اللوحات الصوفية فهو في أكثر من مكان يصف الدنيا بأنها لهو ولعب، ويحضنا على الزهد في بريقتها وهي نظرة صوفية.

الصوفية إذن هي في جوهر الدين وليست ابتداء في الدين. وهي درجة تخصص فالعبادة عند الصوفي تُعدُّ حبا، لا طقسا دينيا خاليا من روح الحب.

الصوفي :

يرى د. مصطفى أن الصوفي هو ذلك العبد السليم الذي يتجرد ويخلص وجهه لله تعالى، ويفرغ القلب من شواغل الدنيا ويجمع الهمة للذكر بالقلب ويعمر كل وقته بالعبادة.

يقول :

لا نقصد بالصوفية في كلامنا أهل الشعوذات والمتسولين

(١) الإسلام ما هو؟ ص ٩٨.

الذين رفضوا الأسباب، فتلك انحرافات نجدها في كل مذهب وفي كل ملّة وهي لا تدين المذهب ولكنها تدين أصحابها.

ونقصد بالصوفية كما تعلمناها من الكبار الكمل أمثال الشاذلي والرفاعي، والنقري وابن عطاء الله السكندري وغيرهم، فنحن مع هؤلاء في صميم الإسلام. والصوفية، أقدر الناس على تجسيد كلمة الشهادة، إذ ترتفع عند الصوفي درجة الإقرار إلى درجة الشهود.

غيرهم يُقر بـ (لا إله إلا الله) وهم يشهدون بالعين والقلب أنه (لا إله إلا الله).

والقرآن يشتمل على أوامر للعامة وأوامر للخاصة الذين هم في أعلى المراتب وتنطبق عليهم الآية: ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ وفي ذلك فليتنافس المتنافسون، وليس في مكاسب الدنيا وعرضها الزائل، فهذا هو مجال التنافس الشيطاني السهل الذي لا يثمر إلا عرضاً زائلاً.

فالتصوف بحر فيه من الجواهر والآلئ والمراجين ما لا يستطيع أن يبلغه إلا الغواصون الذين أفردهم الله وعلمهم كيف تكون الملاحاة في الأعماق واصطياد الحقائق أ.هـ^(١).
الأعيان الثابتة :

علم الله قديم أزلي، يعلم الأشياء قبل وجودها، علماً قائماً بذاته ولا يتجدد علم الله بظهور الأعيان، تعالى الله عن ذلك، والأعيان الثابتة هي الحقيقة الباطنة، للموجودات الظاهرة، والأعيان لم تبرز للوجود، وإنما ظهرت ظلالها التي هي الأكوان، والمقصود من خلق العالم هو الإنسان، وهو بمثابة النفس الناطقة للكون مثل النفس الناطقة في الجسم، ونقصد الإنسان الكامل، وليس الإنسان الحيوان.

(١) الإسلام ما هو؟ ص ٩٨.

ويقول د. مصطفى مثلما قال الشيخ الأكبر وغيره من العارفين: إن الأعيان الثابتة، اختارت ما هي عليه في الدنيا بمحض إرادتها ولم يجبرها الله على ذلك. فكل عين تعشقت باسم إلهي، هو الحاكم عليها في الدنيا، وإذا سأل العبد ربه: لماذا خلقتني هكذا؟ قال له الحق تعالى: خلقتك بما علمتك وبما طلبته وقبله استعدادك. وهذه المسألة لا تفهم إلا ذوقا (أرجو أن يعذرني القارئ ويعذرني د. مصطفى محمود. فإنني كثيرا ما أمزج كلامي بكلامه، الذي قرأته في كتب العارفين، وهذا يحدث رغما عني، فالمعين الذي نستقي منه واحد. هو علوم أهل الله).

وقد شغف د. مصطفى بهذه الحقيقة العرفانية (الأعيان الثابتة) فكتب عنها مسرحيته (زيارة للجنة والنار) ويقول د. مصطفى: في هذه الزيارة أسير بخطى الخيال، وبطل المسرحية ليس شخصا بعينه. ولا يرمز لأحد ممن نعلم، بل هو رمز للجبروت والجبارين، وأنا لم ينكشف لي شيء من أمور هذه العوالم. ولكنه الخيال المطلق واليقين الثابت بأن الجبارين على كافة أسمائهم وعصورهم سيكون هذا مصيرهم. والله يخفي لهم من العذاب أكثر مما نقول: كما يخفي للصالحين الأبرار والشهداء من النعيم أكثر مما يحلمون به، وتعالى ربنا عما نقول ونكتب، فنحن أسرى الكلمة وسجناء الحرف، والحقيقة من وراء الكلمة والحرف، والله من وراء الجميع (زيارة للجنة والنار ص ٨).

ونعرض للقارئ المسرحية بإيجاز شديد جدًا:
تبدأ المسرحية بموت ملك جبار ظالم في السجن، ورعيته تطلب القصاص منه، لأنه قتل الأبرياء وأحرق الأطفال والنساء، لكنه مات ويقع الناس في حيرة، كيف يموت هكذا دون عقاب؟ وأين العقاب؟ ويقول لهم السجنان: أنه يعاقب أشد العقاب في النار.

ويظهر مشهد النار على المسرح. ويدور حوار بين الملك الجبار وشيطانه. ويعرض المؤلف من خلال الحوار فكرة الأعيان الثابتة. وأن الإنسان الجبار اختار جبروته وطغيانه قبل أن يُخلق ومنذ كان في عالم الإمكان، بل طلب ذلك من الله ﴿ولا يظلم ربك أحدا﴾ وأن جميع الاختيارات عرضت على هذا الملك الجبار فلم يختَر إلا الجبار، وغيره اختار العالم، وآخر اختار المصور وهكذا، والذي لا يفهم هذه الحقائق هو حمار وبهيم. وتتوالى المشاهد. ومن مضامين المسرحية، أن الإنسان المذنب المنكسر الذي يفعل الذنب لظروف قاهرة، وهو نادِم على ذلك، هذا يتوب ويدخل الجنة، والمصرُّ على الذنب. والذي يجاهر به وينشره ويشجعه ويهيئ له ظروف حدوثه. هو من أهل النار، ويذكر المؤلف بعض أسماء شخصيات كانت مشهورة في الحياة الدنيا بعضهم في النار، وبعضهم في الجنة، ويعرض فكرة أن الدنيا دار بلاء واختبار، وأن العذاب المحدود فيها ليس عذابا بالمرّة وأن الله تعالى مالك الملك. فهو يتصرف في ملكه، ويفعل فيه ما يشاء. وأن الشيطان ليس له سبيل على عباد الله المخلصين. ويناقش الفكر المادي الماركسي، ويبين أن الإنسان باستخدامه العلم الحديث في الشر والفساد. ونشر الرذيلة من خلال التليفزيون والأقمار الصناعية. صار أخط درجة من الشيطان. وتنتهي المسرحية بنداء:

يا أهل الجحيم عذاب ولا موت
يا أهل الجنة نعيم ولا موت
جفت الأقلام وطويت الصحف

وقد اختصرنا المسرحية، بدرجة مخلة ومشوّهة للنص، وعذرنا في ذلك أننا نتعرض لفكرة واحدة، وهي فكرة الأعيان

الثابتة، والتي تعرض لها د. مصطفى في أكثر من كتاب. وهي من العلوم التي يتلقاها العارف في معراج الروحي، ود. مصطفى محمود. هدفه من المسرحية، تعريف الناس بأن كل واحد مسئول عن أوزاره وذنوبه، وغرس هذه الفكرة في قلوبهم. عن طريق العرض المسرحي، ولم يسترسل في أغوار علم الأعيان الثابتة، وكيف يكون حال من يراها تفصيلاً ومن يراها جمعاً وإيهاماً أعلى مقاماً، والوقفه التي تسبق دخول منزل الأعيان الثابتة وأدب الداخل إلى هذه الحاضرة، والعلوم الأخرى الموجودة في هذا المنزل غير علم الأعيان الثابتة، كل هذا لم يتناوله د. مصطفى محمود لأنه يخاطب عامة القراء، وتلك وظيفته كما قال في حوار معي: أنا أجرُّ رجلَ الرجل العادي، إلى هذا العالم الغيبي النوراني وكفاني هذا.

العالم والعارف :

يتناول د. مصطفى محمود موضوع المعرفة والعارف، والوقفه والواقف والعلم والحرف، والكون والسوى، ونحو هذه المصطلحات في أكثر كتبه، حتى في المسائل التي تختص بالأمور الدنيوية نجده يتحدث عن هذه المعاني النورانية الراقية، ليجذب القارئ إلى هذا العالم، عالم الروح.

وهذا يرجع إلى شغف د. مصطفى وحبه للعارف الكبير والقطب الخطير محمد بن عبد الجبار النقي صاحب المواقف والمخاطبات. ووضع د. مصطفى كتابه (رأيت الله) لإشير إلى جانب من مضمون علم هذا العارف، وقد قرأت ما يسره الله لي عن المعرفة والعارف والعلم والعالم والوقفه والواقف. ومنازل المعرفة الروحية، وأهل الله متفقون فيما بينهم على حقيقة المعارف الإلهية، غير أن هناك اختلافاً في التعبير بالألفاظ يوهم القارئ

الذى ليس له خبرة بهذا الفن، أن هناك اختلافا واسعا بينهم، والحقيقة أنه لا يوجد أى شقاق أو اختلاف، ونحن نعتمد فى دراستنا للتصوف على مصدر واحد هو مؤلفات الشيخ الأكبر ابن عربى، فنعود إليه إذا تضاربت الأقوال فى موضوع ما. ونترك التفصيل بين مقامات العارفين فالله أعلم بهم. ونحن نرجع إليه لأنه لم يترك علما فى التصوف إلا شرحه ووضحه.

يرى النفرى، وكل من كتبوا عنه، ومنهم الدكتور مصطفى محمود، أن المعرفة أعلى من العلم، والوقفه نهاية فى المعرفة، بينما يرى ابن عربى أن العلم أرقى من المعرفة، ونحن نتكلم عن العلم بالله، والمعرفة بالله، دون العلم والمعارف الأخرى. ويرى ابن عربى أن اسم عالم الذى سمّانا الله به أولى من اسم عارف، وأن العارف دون العالم، والله ما سمى العبد عارفا إلا من كان حظه البكاء من الأحوال، ومن المقامات الإيمان بالسمع لا بشهود الأعيان، ومن الأعمال الرغبة إليه سبحانه والطمع فى اللجوق بالصالحين قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ [المائدة: ٨٣] ولم يقل علموا فوصفهم بالمعرفة وفى آخر الآية ﴿فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [المائدة: ٨٤] فسماعهم من الكتاب الكبير لا من أنفسهم والله تعالى أثابهم. والصدقية فوق هاتين الصفتين اللتين طلبهما العارف، فالعارف يعمل على تحصيل الأجرة والثواب، والله برا الصديقين من طلب الأعواض وطلب الثواب لأنهم يعلمون أن أفعالهم ليست لهم فلا يقوم بهم خاطر لطلب العوض فلنتعلم الأدب، فعلم الأسماء عظيم، وانظر بعين البصيرة أدب الرسول ﷺ أين جعل العارف، حيث جعله الحق فقال ﷺ: «من عرف نفسه عرف ربه» ولم يقل علم ربه، فلم ينزله عن حضرة الربوبية

ولا عن حضرة نفسه التي هي صاحبة الجنة «فيها ما تشتهي الأنفس» فالعارف صاحب شهوة محمودة.

ثم يقول ابن عربي :

معذرة: أعتذر بها عن أصحابنا من أهل الله في تسميتهم صاحب المقامات والعلم والله عارفا ولم يسموه عالما، كما قررنا وهو كان الأول من كل وجه، ولكن غلبت عليهم الغيرة على طريق الله. لما رأوا أن اسم عالم قد شاع في كل من كان عنده علم من العلوم وإن انكب على الشهوات والمحرمات، وتورط في الشبهات، ومع هذا يطلق عليه اسم عالم، فأدرك أهل الله الغيرة أن يشاركهم البطال في اسم واحد فأداهم الأمر إلى تسمية المقام معرفة وصاحبه عارفاً أهـ^(١).

وقد جرى د. مصطفى محمود على مجرى أهل الله، وأطلق على صاحب المقامات والعلوم الدنية اسم عارف، وهو مصيب في ذلك، فلا يعترض أحد على كلامه. فقد قرأ د. مصطفى ابن عربي ويعرف كل ما قاله. ولكنه لا يغوص بالقارئ كما قلنا من قبل في هذه المحيطات العميقة المهلكة.

العارف بالله عند مصطفى محمود:

يرى د. مصطفى أن أي إنسان، لم يطع الله، فما عرفه ولو كتب المجلدات ودبج المقالات وألف النظريات في المعرفة الإلهية. ولقد كان إبليس فليسوفا وعالما ومجادلا وكان يبهر الملائكة بعلمه وفلسفته، وظل سيعين ألف سنة يعبد ويتفلسف ولكن الله يعلم أن هذا المخلوق المتكبر، بكلامه عن المعرفة الإلهية إنما يتحدث بلسانه، وأن كلامه لا يدل على قلبه.

وسيد الأدلة على المعرفة وعدمها هو السلوك عند الأمر والنهي

(١) مواقع النجوم. ابن عربي. ط مكتبة صبيح من ص ٢٩ حتى ص ٢٢ باختصار شديد.

وهذا ما حدث لإبليس: حينما جاء أمر الله، شقَّ عليه تنفيذه ونسى ما كان يحاضر فيه منذ لحظات.

وسقط إبليس مع أجهل الجاهلين، ولم تغن عنه النظريات التي كان يبهر بها الملائكة ويتصور أنه سيد العارفين.

وقد سألت د. مصطفى عن المستشرقين وكتاباتهم عن التصوف رغم عدم إيمانهم بالإسلام مثل أسين بلاثيوس، وماسينيون وغيرهم وبعضهم من اليهود الذين يعادون الإسلام. كيف يكتبون ويترجمون ما لا يؤمنون به؟

قال: بعض المستشرقين آمن برسالة الرسول محمد ﷺ، أما الذين ذكرتهم فهم يهتمون بالتصوف من باب إحياء اللاهوت المسيحي، ويتخذون الصوفية في الإسلام جسراً للعبور في إحياء هذا اللاهوت، والصوفية أغلب كلامهم عن المحبة، وهؤلاء عندهم فكرة (الله محبة) لكنهم جهلة لا يعرفون عن التصوف أى شيء.

ونعود إلى آراء د. مصطفى محمود وكلامه عن العارف بالله. يرى كاتبنا أن إبليس اليوم هو التعجرف العقلاني في الفلسفة الغربية وفكرة السوبرمان عند نيتشه. والإرهاب الفكري في الأيديولوجيات المادية، وكل ذلك جهل وكبر، تسمى بأسماء جذابة كالعلم والفلسفة والفكر. والحيوان عنده علم أكثر من علم هؤلاء الناس.

والفلاح البسيط الذي يطوف بالكعبة باكياً مبتهاً عنده علم بالله أكبر وأعمق من علم دكتور السوربون المتخصص في الإلهيات. وأنا ولا شك قد حشوت رأسي بكمية من المعارف الإلهية أكثر بكثير مما كان في رأس أبي رحمه الله، ولكن لا أرتاب لحظة في إنه عرف الله أكثر مما عرفته وأنه بلغ سماء المعرفة بينما أنا ما زلت على أرضها، حظي منها شطحات وجدان، وإنما

سبقني أبى بالطاعة والتقوى والتزام الأمر.
وعن خوارق العادات التى ينبهر بها الناس وأهل الطرق
الصوفية يقول د. مصطفى محمود:
لقد كان راسبوتين يشفى المرضى ويتنبأ بالمغيبات، ويأتى
الخوارق، وهو أكبر فسّاق عصره.
وسوف يأتى المسيح الدجال فيُحى الموتى وينزل المطر ويشفى
المرضى ويأتى بالخوارق فلا تزيده إلا دجلاً.
ويقول:

ليس العارفون هم حملة الشهادات. وإنما هم أهل السلوك
والخشوع والتقوى، وهؤلاء قلة لا زامر لهم ولا طبّال، وسلوكك
هو شاهد علمك وليس الدبلوم أو البكالوريوس أو الجائزة
التقديرية أو نيشان الكمال من طبقة فارس الذى يلمع على
صدرك.

إنما كل هذه مواهب إبليسية تنفع فى الدنيا، وليس لها وزن
ساعة الحق، أما العارفون حقاً، فهم البسطاء أهل الاستقامة. الذين
تراهم دائماً فى آخر الصف. إذا حضروا لم يُعرفوا، وإذا غابوا
لم يُفتقدوا، وإذاماتوا لم يمش خلفهم أحد.
فإن لم تكن منهم فخدامهم السائرون خلفهم والطاعمون على
فئات موائدهم [كتاب نار تحت الرماد].
الوقف والواقف :

يحاول د. مصطفى محمود أن يوقظ القلوب النائمة الغافلة،
ويحفّز الهمم الميّتة، وينشّط الإنسان لطلب الأمور العلية والسعى
فى تحصيل المقامات السنية، ولذلك اختار فى كتاب (رأيت الله)
المواقف السهلة، ورغم ذلك، فإنه لا يفهمها إلا أهل الله أصحاب

الأذواق. إذن ماذا يستفيد القارئ؟ نقول يستفيد معرفته بجهله، ويدرك أنه يعيش حياة الأنعام والحيوانات إذا لم يعرف الله. فإذا أدرك الإنسان أنه حيوان في صورة إنسان سعى إلى إزالة الباطن الحيواني الكامن في قلبه، بالاتجاه إلى الله، فإذا فعل هذا بعد قراءة مؤلفات كاتبنا، فقد أدى د. مصطفى محمود ما عليه وهو لا يطمع في أكثر من ذلك.

ونعود إلى الوقفة والواقف. فنرى ابن عربي يختلف مع النفري في مفهوم الوقفة. ومع شارح المواقف الشيخ عفيف الدين التلمساني الذي يقول (الوقفة عند النفري تعنى فناء الطالب في ذات المطلوب وسميت وقفة للوقوف فيها عن الطلب).

يقول ابن عربي:

ما من منزل ولا منازل، ولا حال ولا مقام إلا وبينهما برزخ يوقف العبد فيه يسمى الموقف، وهو الذي تكلم عنه النفري. فاسم الموقف هو المنزل أو المقام أو الحال الذي ينتقل إليه العارف وما يسميه النفري (موقف وراء المواقف) هو الموقف الذي لا يكون بعده ما يناسب الأول أي انتقال من حال إلى مقام أو من مقام إلى حال، وفائدة المواقف هي إعطاء العارف آداب ما ينتقل إليه، فيعلمه الله تعالى كيف يتأدب في الأمر الذي يستقبله. فلكل منزل ومقام وحال أدبه إذا لم يلزمه العبد طرد، فهذه فائدة المواقف وعلمها. وهناك حالات في السير إلى الله ليس فيها مواقف لأنها ليست انتقالاً وإنما هي تغيير في حال السالك، والمقام واحد لم يتغير. والمنزل واحد، لكن السائر إلى الله ينتقل فيه، فهذا السائر لا يقف ولا يتحير ولكن يفوته علم جليل، وعلمه علم إجمال لا تفصيل. وصاحب المواقف في مشقة وتعب، لكنه عالم كبير. والذي لا موقف له يكون مستريحاً، ويرى المواقف في مشقة

ويتخيل أنه دونه في المرتبة، وربما يتشيخ عليه لجهله بالواقف، وصاحب الواقف لا ينكر عليه سوء أدبه في تشيخه عليه، ولا يعرفه بحقيقة الأمر لأنه يعرف أن الله ما أهله للوقوف فيقول له: يا أخى سلم إلى حالى ويتركه. (انتهى كلام الشيخ الأكبر).

فإذا كان يا أخى هذا هو حال العارفين مع بعضهم وتفاوت مقاماتهم. فأين نحن من هذا العالم العلوى؟ والله إنها لحسرة وخيبة وطامة كبرى أصابت غير العارفين.

وكتاب الواقف والمخاطبات يحتوى على ٧٧ موقفاً. و٥٨ مخاطبة اختار منها د. مصطفى محمود ٢٢ عنواناً. غير العناوين التى فى كتاب الواقف من منطلق تسهيل الأمر على القارئ، فى كتاب (رأيت الله) ولم يذكر الواقف الصعبة.

ويتحدث د. مصطفى محمود فى هذا الكتاب عن التوحيد الخالص الذى يمكن التعبير عنه فى عبارات وحروف. أما توحيد العارفين الأكابر فهو مكنون فى صدورهم. لا يمكن أن تحمله العبارة ولا الإشارة.

يقول النفرى فى موقف الوجدانية (كتاب الواقف ص ٨٠) (١):

وقال لى: أظهرت كل شىء يحجب عنى ولا يدل على

وقال لى: ذكرى أخص ما أظهرت، وذكرى حجاب .

وهذا الكلام يا أخى الكريم خاص بالعارف الواقف الذى سيدخل منزل الوجدانية، وقد ذكرنا كلام ابن عربى لنشارك د. مصطفى محمود فى تسهيل الأمر على القارئ. فهذه الآداب ليست لى ولك فنحن من أهل الحجاب.

يقول د. مصطفى محمود عن الحجب التى تحول بين العبد

وربه:

(١) الواقف والمخاطبات- النفرى- دار الكتب المصرية ١٩٢١ م.

الحجب خمسة: حجاب أعيان (الأعيان هي كل ما خلق الله من مخلوقات) ، وحجاب علوم ، وحجاب حروف ، وحجاب أسماء ، وحجاب جهل. ثم يسترسل في تناول هذا الأمر ليوضحه أكثر فيقول:

الدنيا والآخرة حجاب أعيان، والعلم حجاب أعيان أيضا لأنه يبحث فيها وفي قوانينها، وحجاب الحروف هو الحجاب الحكمي، والأسماء حجاب على المسمى، وحجاب الجهل هو الحجاب الذي لا يهتك إلا بقيام الساعة. (رأيت الله ص ٥٣).

وكتاب (رأيت الله) يحتاج لدراسة في كتاب خاص، وقام د. مصطفى محمود بجهد مشكور في تقريب فهم كتاب (المواقف والمخاطبات) للقارئ، فأسماء المواقف المذكورة في الكتاب تصد القارئ السالك عن قراءة الموقف لصعوبة معناها فما بالك بالقارئ العادي. فأسماء المواقف وردت هكذا: (موقف المحضر والحرف - موقف الكشف والبهوت - موقف هو ذا تنصرف - موقف محضر القدس الناطق - موقف اسمع عهد ولايتك) وهذه أمثلة فقط والقارئ لا يعرف الولاية ولا مفهومها كما يقصده النفرى فكيف يسمع عهدها؟ وكذلك المخاطبات كلها تحمل معاني غامضة لا تفهم إلا ذوقا ومن حاول فهمها وتفسيرها بعقله أساء الظن بالنفرى وهذا ما لا نريده لأحد من خلق الله، فالنفرى من أولياء الله الأكابر، ومن أساء الظن بهم، ربما لا تُحمد عقباه.

ففي المخاطبة رقم (٤٨) ص ٢١٢ من كتاب المواقف والمخاطبات تحقيق د. أربري . يقول النفرى:

«يا عبد ما توكل على من طلب مني

يا عبد شكاني من اشتكى إلى وهو يعلم أنتى بليته،

ويحتار القارئ

إذا لم يطلب العبد حاجته من الله، فممن يطلب؟
وإذا لم يشك إلى الله، فلمن يشكو؟

ولكن النفري يتحدث عن أدب مقام التوكل والتفويض وأدب المشاهدة. فصاحب هذه المقامات يشاهد ذوقاً أن الله ليس بغافل عنه، فهو تعالى ليس بحاجة من العبد أن ينبهه إلى طلبه، ويشاهد أن البلاء النازل به من الله هو منحة ونعمة (وكل ما قدر المحبوب محبوب) فكيف يشكو من أمر محبوب. ولكل عارف مقام ومرتبة ومنزله ومنها ينطق بما يقول.

فإذا عرفت مدى غموض ورمزية عبارات النفري، أدركت ما قام به د. مصطفى محمود من جذب القارئ إلى هذا العالم الغريب عليه ووضع د. مصطفى عناوين مشوقة للقارئ، ولم يضع أسماء المواقف الأصلية، فتجد في (كتاب رأيت الله) مواقف: الامتحان، حكمة خلق الدنيا وابتلاء الإنسان، معنى اسم الله العزيز: معنى الإسلام ادخل إلى وحدك. وهكذا، لكنه في نفس الوقت وضع بعض المواقف بأسمائها الأصلية مثل موقف اسمع عهد ولايتك، لكنه يضيف بعض الألفاظ التي توضح الموقف.

يقول النفري: «لا تتأول على بعلمك» ويضيف د. مصطفى «أى أطع أحكامى دون تأويل ودون جدل» ويحذف من الموقف العبارات التي من المستحيل أن يفهمها إلا عارف مثل قول النفري: الليل لى لا للقرآن يتلى... فلم يذكر د. مصطفى هذه الجملة. (رأيت الله ص ٤٤).

ويمكن القول بأن كتاب رأيت الله مدخل لقراءة النفري. ود. مصطفى يرى أن كتاب المواقف لخاصة الخاصة من أهل الله وليس للعوام الذين يقرأون للمتعة العابرة. ويرى أن أى شرح للنفري إفقار وليس إخصاباً لمعانيه. وتبسيط النفري للعوام

جريمة فهو كما قلنا يتكلم لخاصة الخاصة. والعلوم التي تعرض لها هي من قبيل العلوم المحظورة على العوام.

ويقول: لهذا آثرت ألا أشرح النفرى إلا في أضيق الحدود، واكتفيت بتعقيب في آخر الكتاب. حاولت به أن أتلّس جوهر فكره. والنفرى كأي صوفي لا يشغله إلا شيء واحد هو الله، ولا يرى طريقاً إلى التخلص من السوى إلا التجرد وخلع النعلين. والنعلان هما النفس والجسد. ويوضح د. مصطفى محمود تدرج السالك في مقامات المعرفة عند النفرى، فيرى أن أول قطار يركبه النفرى في هذه المرحلة هو العلم. والعلم عند النفرى مطية ودابة تركبها لهدفك. وخطر الخطر أن تدعها تركبك وتقودك وتجعلها هدفاً. والمعرفة عند النفرى غير العلم؛ فالعلم إدراك الجزئيات (الكون) والمعرفة إدراك (المكون) أي تجليات الله وصفاته وأسمائه وأفعاله وفي طريق السلوك نكتشف أن واجهة العلم لم تعد تصلح للسلوك في باقى الطريق، وهنا لابد أن نغير المطية، ونستبدل المواصلة ونودع قطار العلم. فلم يعد للعلم جدوى لأننا سنخرج من عالم الجزئيات (الملك والملكوت) إلى عالم الكليات (الجبروت) إلى العالم الإلهي، فلا بد من الخروج من ذلك القطار العاجز الذي اسمه العقل والمنطق العقلى إلى مرحلة جديدة يسميها النفرى المعرفة. وهذا يستلزم التجرد من العالم المادى كله، وهو ما يسميه النفرى بالخروج من النفس وبلوغ مرحلة المعرفة إلى الذات بعد معرفة الأسماء والصفات تنتهى المعرفة إلى العجز، فعجز العارف عن الإدراك هو عين الإدراك وهنا يلزم تغيير المطية ويلزم الخروج من المعرفة كما خرجنا عن العلم من قبل إلى مرحلة يسميها النفرى الأدب، وفي مكان آخر الوقفة وهنا يقول النفرى أنه يلزم الخروج من الحرف (الحرف هو كل العلوم والمعارف والخواطر والعبارات والمعانى).

وبعد الخروج من الحرف تأتي مرحلة الرؤية، ثم الرؤية الكبرى ثم المجالسة والصحبة والحضرة الدائمة مع الله، وهو مقام الخلّة والمحبة . ولا يذكر النفرى ماذا يرى فى حالات التجلى فهى من الأسرار المحظورة. إذا عرفها الإنسان وهو فى بشريته اختبل عقله وقلبه، والإنسان فى كل هذه المراحل لا يخرج من عبوديته أبداً، إنما رحلته عبارة عن ارتفاع إلى رتبة شرفية من رتب العبودية.

هكذا فى إيجاز وإيضاح على قدر المستطاع. تمكن د. مصطفى محمود من عرض معارف النفرى، وهو من أقطاب الأولياء الذين حار الأولياء أنفسهم فى فهم كلامه.

برنامج العلم والإيمان :

سألت د. مصطفى محمود: كيف بدأت فكرة إعداد برنامج العلم والإيمان؟

قال: كنت أكتب عموداً يومياً بعنوان: تأملات عن العلم والإيمان، ومن خلال تكرار كتابة هذه التأملات. وجدت أن عرضها فيه فائدة كبيرة لمشاهدى التلفزيون، والدين الإسلامى أقرب الأديان للعمل والعقل، ومدخل لعالم العلم الحديث، وبدأت البرنامج بمجهود فردى، كنت أدور على السفارات الأجنبية فى مصر، وأستعير منها الأفلام التى أقدمها فى التلفزيون، ثم بعد أربع سنوات لم أجد أفلاماً جديدة، نفدت كل الأفلام الموجودة فى السفارات فقامت شركة الرياض للإعلام بمساعدتى فى الحصول على الأفلام من الخارج، وتبنت البرنامج. ويسرت لى السفر إلى إنجلترا وأمريكا وغيرهما من الدول، فكنت أذهب إلى هذه الدول، وأمكث هناك شهراً أو شهرين، أبحث عن الأفلام المناسبة، وقدمت ٤٠٠ حلقة وأبتدا البرنامج عام ١٩٧٠.

أقول: برنامج العلم والإيمان من أحسن البرامج التي قدمها التلفزيون ولو سألت المشاهدين. ما هي أحسن البرامج في التلفزيون؟ لقالوا برنامج العلم والإيمان، ولا أدري ما سبب عدم إذاعة هذا البرنامج الذي يطلبه الناس، ويرتفع بذوقهم ويقوم أنفسهم ويبصرونهم بالحقيقة ويدعوهم إلى معرفة الله، في وسطية واعتدال وبساطة. والذي يهم القارئ الذي يريد معرفة الجانب الصوفي في هذا البرنامج. هو ما قدمه البرنامج من حلقات توضح العالم النوراني، عالم الروح. وطبعاً لا يمكن تصوير هذه العوالم في أفلام، لكن الدكتور مصطفى اختار بعض الأفلام، التي تدور حول هذه العوالم، فأذاع حلقة عن الهالة الروحية أو الجسم الأثيري المحيط بالإنسان، وقد أمكن تصوير هذه الهالة بآلات تصوير حديثة جداً، وهي عبارة عن شريط ضوئي يحيط أو قل جسم ضوئي يحيط بجسد الإنسان، وتختلف ألوانها، فهي في أهل الصلاح خضراء وتزداد ضوءاً بالعبادة، وفي أهل الفساد والمجرمين والسفاحين زرقاء، وعلق د. مصطفى على هذه الحلقة تعليقا يجب أن تعاد إذاعته كل فترة؛ لأنه يذكر الناس بيوم القيامة، أكثر من أي حديث أو خطبة أو مقال. قال: الهالة الزرقاء في المجرمين دليل على ما في قلوبهم من حقد وضمينة وكفر وضلال، دليل على طبيعتهم النارية فأين تذهب هذه النار في الآخرة؟ لا بد أن تختلط بالنار التي تناسبها قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ [طه: ١٠٢]، حيث يزول الجسد وتبقى هذه الهالة، وقال: يعني كيس الزبالة، نرميه فين؟ في كوم الزبالة طبعاً، وأهل الجنة بما فيهم من نور الآن، يذهبون إلى عالم النور، فكل واحد يعود إلى أصله، وما هو العلم يصور لنا بالكاميرات هذه الحقائق.

فقل لي يا أخى، ما هو المانع من إذاعة هذه العلوم الراقية، والمعارف السامية، والله تعالى خالق كل شيء، وما أوجد التليفزيون فى الدنيا إلا لإذاعة مثل هذه البرامج التى تقرب عباده منه سبحانه وتعالى، وفى حلقات كثيرة، يبصر المشاهد، بالقوة الروحية الكامنة فيه، وأنه يعيش بعشر ما فيه من طاقة، ويدعوه لتنمية هذه الطاقة الروحية بالإيمان والعبادة، ويتحدث فى الدعاء المستجاب ومدى تأثيره فى تحقيق المستحيل، والظواهر الخارقة مثل الإحياء الذاتى والتنويم المغناطيس وقراءة الأفكار، والتأمل الذى يشفى الأمراض. وينبّه القارئ أنه يملك أعظم القدرات إذا عبد الله حق عبادته فيكون عبدا ربانيا فيقول للشيء كن فيكون، ولا يمكننا استقصاء كل الحلقات والحديث عنها، ولكن نشير فقط إلى أهمية هذا البرنامج العظيم، والذي يذاع الآن فى بعض الدول العربية، ولا يذاع فى مصر، وقد فقد التليفزيون بعدم إذاعته جمهورا كبيرا من الناس البسطاء الأسوياء، ولا ندري. إذا طالبنا بإعادة إذاعته بانتظام بل باهتمام والإعلان عنه، كما نعلن عن بقية البرامج. ماذا سيكون الجواب من المشرفين على التليفزيون. ندعو الله تعالى أن يبصر الجميع بفعل الخير إنه هو السميع العليم.



د. مصطفى محمود

والتصوف



تسوير

وتنوير

هذا الفصل، هو للعقل تنوير، وللقلب تبصير،
يحتاجه الصغير والكبير والغافل والمتغافل، والعالم
والجاهل، والواقف والسالك، والناجي والهالك،
والغنى والمحروم، والحاكم والمحكوم، فما هو غيب
مكتون ولا علم مضمون، هذا الفصل يجب أن يعرفه

الرجال والنساء والأصدقاء والأعداء، واليقظان والصادر، والمؤمن
والكافر. فعلى كل جاهل وعالم أن يتبصر بشئون العالم، وأحوال
هذا العصر، الذي شاع فيه الخسر والكذب والتضليل في الكثير
والقليل، وأصبح الصحيح عيلاً، والعليل قتيلاً، وأمتك ناصية
الأمور كل بطلان ميسور، وتكاثر النفير حول السفاح والمجرم
والحقير، وذلت النفوس الفاضلة، والبواطن الكاملة، وليس لنا إلا
لطف الله، فليتضرع كل واحد إلى مولاه ولا حول ولا قوة إلا بالله.
البصيرة:

أتساءل كثيراً وأنا أقرأ سلسلة كتب (مجموعة الصراع العربي
الإسرائيلي) هل د. مصطفى خريج كلية السياسة والاقتصاد؟ هل
هو زعيم سياسي؟ هل هو وزير خارجية؟ هل هو فقيه؟ هل هو
رجل حرب؟ هل هو خبير إعلام؟ نقول: لا، إذن ما هذا السر الذي
جعله سهل فهم أكثر الأمور تعقيداً، ويطرحها أمام القارئ في
بساطة نادرة، إنه كاتب وفنان ومبدع، يصوغ أفكاره في قالب
الرواية والقصة القصيرة والمقال الأدبي. فما هذا التحول المفاجيء،

الذى بفت به جميع القراء وأدهشهم، فى كتابة هذه المجموعة؟ كيف يكتشف الخبايا التى تدور فى كواليس السياسة والأمم المتحدة، والخبرة التى تجدها فى كلامه عن الاقتصاد والإعلام، والحرب المعلنه والمستورة، والإرهاب والرياء، والبنوك وما تفعله إسرائيل، وما يحدث فى السودان، وإيران، وكل شئون العالم يتحدث عنها كأنه عايشها، أو أحد المسئولين عنها؟ إنها البصيرة القلبية أولا، والعلم والاطلاع والثقافة عاشرا، وليس ثانيا. وقد أردت أن أعرف الحقيقة فسألته عن هذا السر، فأجاب بما قلته الآن: البصيرة لا أكثر. هذا هو رأيه فيما كتب. والبصيرة، لا يمتلكها إلا أهل الله، أهل الطريق الصوفى، والمؤمنون الصادقون فى إيمانهم المطيعون لربهم، بقلوبهم وأرواحهم.

ومجموعة كتب (الصراع العربى الإسرائيلى) لا تخلو من التصوف؛ ففي خضم حديث د. مصطفى عن الأحداث العالمية والكوارث والحروب والزلازل والفساد، التى تجعل القارئ يلهث ويصاب بالدوار، نجده يجلس مع القارئ جلسة روحية، ويحدثه عن العارف بالله، ثم يبصره بحقيقة ما يحدث فى العالم، ويعود بين الحين والحين إلى هذه الجلسة، ويقول له: مقاليد الأمور كلها بيد الله، فلا تيأس. ويمضى بنا فى كتاباته على هذا النحو.

وإذا كان السالك من أهل الله لا يريد أن يشتم نفسه بأحوال العالم فى الداخل والخارج، فماذا يفعل مع أسرته، وأولاده ضحية الغزو الثقافى؟ ولا يستطيع أحد أن يمنع تسرب الأفكار التى تقتل الفضيلة والأخلاق، والتى يسمعها أولادنا ويقرأونها فى الصحف والمجلات، ويشاهدونها فى التلفزيون.

وعلى المسلم الحقيقى والصوفى الحقيقى، أن يكون كئسا فطنا عالما عابدا، زاهدا، جريئا صريحا، حكيما، إداريا، إلى آخر هذه

الصفات التي يجب أن يتصف بها في هذا العصر الغريب. وقد قام د. مصطفى محمود بتقديم كل ما يهم القارئ من صواب وخطأ في أكثر الأمور الداخلية والخارجية، ومؤلفاته تغني القارئ الذي لا يستطيع أن يتوسع في قراءته لضيق وقته بل تكفيه مؤنة هذه القراءة.

تناول كاتبنا أكثر القضايا المعاصرة، في حياة، وهدوء، وبصيرة وعلم، دون تشنج أو عصبية أو عداوة أو غل، بل يتحدث بتواضع وافتقار إلى ربه في كل نفس أن يمنحه العون والتوفيق. وهو في كل ما يقول، يرجو الخير والهداية لجميع الخلق ويدعو للتي هو أقوم، وأقول للرفاق الذين يتهمون د. مصطفى بأنه تحامل على المرحوم الرئيس عبد الناصر، لأنه صادر مؤلفاته ومنعه من الكتابة عاما كاملا، أقول لهم: وهل فرويد والمنتبي وسارتر ونيتشه، وماركس، ولينين، ومايكل جاكسون ومادونا و..... منعوا د. مصطفى من الكتابة؟ شيئا من التعقل أيها الرفاق، فأنتم بشر، خلق الله لكم عقولا تفكر، ولستم اسطوانات، ولا شرائط تسجيل، تقبل كل ما يسجل فيها ثم توضع في آلة وتصدر الكلام، فلا تكونوا آلات تحركها أيدي البشر، فهم بشر أمثالكم.

وسوف نختار بعض المضامين التي أوردها كاتبنا، ونختار المضمون الواحد من أكثر من كتاب، ولندع جميعا للدكتور مصطفى محمود بأن يجازيه الله خيرا، ويحفظه هو وأمثاله، ممن يدافعون عن الحق ويرفعون راية الإسلام، ويعلمون الجاهل، ويهدون القائه إلى الطريق المستقيم. ويضيئون الأنوار لمن يعيش في الظلام.

يا أخى المسلم ويا أخى المسيحى:

يقول د. مصطفى لكل مسلم ولكل مسيحي على أرض مصر:
اعلم أن هناك ورقة امتحان مقدمة حالياً لمسلمي مصر
ونصارها يرى الله ماذا سنفعل أمام الغوايات والفتن.
هل سنفعل ما فعلته الطوائف الدينية في لبنان: فنخسر نفوسنا
ونخرب بلادنا بلا ثمرة؟

واعلم أنه إذا طابت العشرة بيننا فمصر دار سلام وأمان لكل
الأديان. الإسلام يا أخى المسيحى دين سماحة ووفاق ومصالحة،
وصدر مفتوح. ورغم أن اليهود من أشد أعداء الإسلام، فقد كان
بيت المال يخرج المعاش لليهودى العاجز كما يخرج للمسلم دون
تمييز.

واعلم يا أخى المسيحى أنه فى القرن الماضى كان يعيش
المناضل الجزائى الأمير عبد القادر. فماذا كان يفعل مع
المسيحيين أثناء حربه مع فرنسا؟ كان يعاملهم معاملة الضيوف
الكرام لأن سيرة مكسور خاطر ذليل مهما كان قدره. كان يأمر
لهم بأطيب الطعام وأحضر لهم رجل دين مسيحي ليخفف عنهم
قسوة الأسر ويصلى بهم. وكان يأمر بإعفائهم يوم الأحد من
الخدمة احتراماً للدين المسيحى. وكان يعيد النساء الأسيرات
مكرمات ويأمر جنوده بعدم أسر النساء. ولما انتشرت أخبار
حسن معاملة الأسرى بين الفرنسيين رفضوا مبدأ مبادلة الأسرى
كى لا يتحدث الأسرى بين ذويهم عن كرم الأمير المسلم، وأخلاق
الإسلام وسماحة الإسلام فينقلب الجنود على قوادهم، ولما علم
الأمير بذلك أطلق سراح أربعة وتسعين أسيراً بلا فدية ولا عوض.
هذا فى الحرب.

أما فى السلم، فكان يعيش فى دمشق، ووقعت فتنة رهيبة بين

المسلمين والنصارى، فماذا فعل؟ سارع إلى الأحياء المسيحية هو ورجاله لحمايتها وآوى فى بيته الرهبان والراهبات والقناصل، وقُتل بعض رجاله الجزائريين، قتلهم الرعاع الذين سعوا فى إحداث الفتنة، ولما أرسلت أوروبا حملة كبيرة وأساطيل وطائرات لضرب دمشق، اجتمع مع قائد الحملة وأقنعه بالعدول عن هجومه وقال له: إن حمايتنا لإخواننا المسيحيين ما هى إلا عمل بالشرعية الإسلامية. والعدوان الذى حدث كان من رعاع جهلة، وقال رسولنا محمد ﷺ: «من ظلم معاهداً أو ذمياً أو واحداً من أهل الكتاب، أو كلفه فوق طاقته أو أنقصه شيئاً من حقه، أو أخذه منه بغير طيب نفس فأنا خصمه يوم القيامة»، تلك هى حقيقة الإسلام، وما يحدث يا أخى من اعتداء على النصارى فى صعيد مصر هو إجرام وليس إسلاماً. فاعلم هذا جيداً.

ويبصر د. مصطفى محمود الإخوة المسيحيين فيقول لهم: اعلموا أنه قد صدرت طبعة مزورة للإنجيل بالقدس عام ١٩٧٠ من دار النشر اليهودية. يحدث هذا اليوم وفى هذا العصر، وتحت سمع الكنيسة وبصرها، ومع ذلك نرى أمريكا المسيحية تؤيدهم وتساندهم بالمال والسلاح وتسكت الكنيسة الغربية عن جرائمهم. ونحن ننتظر من كنيستنا الشرقية، وعلى رأسها رجل مستنير هو الأنبا شنودة أن يقوم بالاحتجاج والتجريم لهذه الأعمال على مستوى العالم، وأن يستنهض الكنيسة الغربية إلى عمل موحد لفضح هذا التدليس التاريخي.

وإذا أردت يا أخى المسيحى أن تعرف تفاصيل هذه الجريمة، فاقراً كتاب د. مصطفى محمود (القرآن كائن حي - دار المعارف) من ص ٧٥ - ص ٨٤، والكتاب ليس من مجموعة كتب الصراع العربى الإسرائيلى، ولكننا ذكرنا هذا الكلام لأنه يدخل فى نطاق

ما نتحدث عنه، وهو تبصير الكاتب للمسيحيين بالحقائق، وتنويرهم بالمعارف، كما يفعل ذلك مع المسلمين، فالجميع إخوة له ولنا ولجميع المسلمين، فأدرك ذلك جيداً وتيقنه.
يا أخى المسيحى :

يقول لك د. مصطفى محمود. فى آخر كتاب صدر له (إسرائيل البداية والنهاية) ص ١٢: ذكرت المنظمة الصهيونية العالمية عن مصر فى مجلة (كيفونيم) أى التوجهات عدد فبراير ١٩٨٢ الآتى:
إن مصر بصفتها القلب المركزى الفاعل فى جسد الشرق الأوسط نستطيع أن نقول إن هذا القلب قد مات وإن مصر مصيرها إلى التفتت والتمزق بين المسلمين والأقباط، ويجب أن يكون هدفنا فى التسعينيات هو تقسيمها إلى دولة قبطية فى الصعيد ودولة إسلامية فى الوجه البحرى.

فافهم يا أخى واعلم جيداً أن إسرائيل وراء ما يحدث من فتن بيننا، ويجب علينا أن لا ننقاد - إلى ما تريد تحقيقه - أمامها كالأغنام، فنحن لنا عقول نفكر بها.

ويقول لك فى نفس الكتاب ص ١٠٤:

يقول اليهود: إن القادم من السماء، هو المسيح الحقيقى وأنه ملك اليهود، وإن الذى جاء من قبل، لم يكن هو المسيح، ولهذا لم يؤمنوا به ولم يتبعوه.

هكذا يقوم كاتبنا بتبصير المسيحيين بالحقائق، وما الذى يُدبر للمسلمين والمسيحيين فى الخفاء، فيا ليتنا نسمع هذا الكلام ونعنيه جيداً ونعمل به.

الله :

لا يكتمل إيمان المرء حتى يدرك أن كل ما يحدث له شفرة يقول بها الله شيئاً وهمسة يهمس بها فى أذنه.

الميكروب الذى يُمرض فى الظاهر، الله هو الذى أرسله وكلفه، فلا شيء يحدث فى الكون خلصة من وراء خالق الكون. السقف الذى ينهار على السكان يحدث فى ميقات معلوم، وكان من الممكن أن ينهار والبيت خال من سكانه. الخلية السرطانية لا تنشط إلا بأمر من ربها ولا تتوقف إلا بأمر آخر منه، والمؤمن يرد كل شيء إلى مشيئة ربه، ويرى ما يجرى عليه من مقادير رسالة خاصة وشفرة يخاطبه بها، ويرى كل شر يصيبه فى باطنه خيراً وكل بلاء فى مضمونه حكمة. وبدون الله وبدون الدين لا معنى لأى شيء، وإنسان العصر الذى يعيش فى أوروبا وأمريكا بدون إله، يعيش حياة رخاء ولذة وقوة، ولكنها حياة أقرب إلى الانتحار؛ ذلك لأن الخواء يملؤها واللا معنى فى صميمها، ولو سألتونى لماذا آمنتم؟ لقلت فى يقين: لأنه بدون الله لا معنى لى ولا لأى شيء.

والأرض أرض الله، والكل فى ضيافته. لا مالك هنا سوى الله. والخلق ضيوف لبرهة تطول أو تقصر، أتوا عرايا ويعودون عرايا، إنها ضيافة وليست إقامة. دار عبور وليست دار خلود. والكل بينى أبراجا وينفق الملايين المزخرفة وهو مسافر مرتحل، إنها حالة من السفاهة العامة والغفلة العامة، نحن فى قطار، حظنا من الدنيا النظرة من عربات القطار.

يقول الله تعالى: ﴿لَوْ أَنْفَقْتُ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا آَلَفْتُ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ آَلَفَ بَيْنَهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٣].

يقول له ذلك، وهو الكامل والرسول.

فإذا لم يكن فى قدرة النبى ﷺ ولا باستطاعته أن يوحد العرب ومعه جبريل والجند العالون من الملائكة أفيكون ذلك باستطاعة عصمت عبد المجيد رئيس الجامعة العربية؟! الله وحده بيده مقاليد كل شيء، وكان الرسول ﷺ يسجد متضرعا مفتقرا إلى الله فى

طلب كل ما يريد، وهل كان النبي ﷺ والقلة من صحابته يملكون إلا هذا السجود، الذي أصبح مفتاحاً لخزائن التاريخ؟ ففي ظروف عجزنا الحالي والحصار المضروب حولنا سيكون سجودنا لله هو أكبر قوة، نملكها بحساب الغيب.

ومن علامات محبة الرب لعبده أن يشعره بالحاجة إليه وأن يقطع عنه الأمل فيما سواه، ولم تكن ولادة محمد ﷺ يتيماً مصادفة بلا أب ولا أم، وإنما كفيل من أهل بيته وليس من دينه، ثم كل عشيرته ينقلبون عليه إلا صحبة قليلة ذليلة وتلك علامة من علامات أهل القرب، وقد سلط الله إسرائيل علينا وناصرتها أقوى الدول، وتلك بشرى، فقد انقطعت صلتنا بالسماء فأراد الله أن يلفتنا إليه، كما يفعل مع أهله وخاصته.

يقول صاحبى: أهو تصوف؟

- بل صميم الدين ولب الإسلام. أصدقتَ القائلين بأن الدين عندنا لحية وجلباب وفقه حيض ونفاس؟ بل هو السجود لله، فاسجد واقترب وابك على خطيئتك، فالدين من هنا يبدأ. والأسباب؟

الله وحده سوف يمدك بها وليس الأمريكان.

والعلم؟ اتقوا الله ويعلمكم الله.

هل بعد القبر شيء؟ بعده كل شيء.

متأكد؟! أكثر من يقينى برؤيتك.

كيف أبلغ هذا اليقين؟

تسجد معى وتقرب.

يا اختى المحجبة :

يقول لك د. مصطفى محمود:

لا أفهم هذه الموجة من التهجم على الاحتشام، وعلى رمز دينى من رموز التقوى والعفة هو الحجاب، ويقال إن المحجبات قبضن

ألف الدولارات وأحياناً ملايين. كلام ساذج ومضحك، فاللاتى يقبضن يأخذن الأجر على الخلع لا على اللبس، وتجارة العرى هي التي تكسب، ولن يكون للعفة سوق في هذه الدنيا، إنه لأمر مُخز ومحزن أن تشيد الصحافة بعرى مادونا وتهاجم رموز الاحتشام. في أى صف يقف هؤلاء الصحفيون؟

ولكن يا أختي المؤمنة. اطمئني، فالبلاء دائماً حظ المؤمن، وكلما ازداد الإيمان اشتد الامتحان، ولا شيء يضيع عند الله، ومهما تصايح الساخرون. أقول: لا نرى ولا نسمع ولا نتكلم، والموعود الله.

الجن وعلاج المس :

الجن موجود ويمكن أن يضر ويسبب المرض، والمس الجنى موجود في القرآن ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ [ص: ٤١]، وعن التداوى بالقرآن فالقرآن كله بركة ولا شك في ذلك. ولكن محترفي العلاج أغلبهم من العوام وليسوا أهل فقه، وقد تكاثروا هؤلاء الادعياء وأصبحوا مثل أكشاك الكوكاكولا، ومن جعل تسبيحه طول الوقت الله، الله. لن يصيبه جن ولا سحر ولا حسد ولا شيطان. وكذلك الاستغفار، والشيطان أضعف منك كيداً ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦].

الإعلام وشبابنا البائس :

الشباب، بل الكبار، انبهروا بكل ما يُقدم لهم من وارد الغرب من فن في الكتب والمجلات والسينما والتلفزيون، فن قتل الوقت كما يسميه د. مصطفى محمود، وأتأسر على شبابنا حين أقرأ أن واحداً من أساتذتهم وقدوتهم في الجامعة، يموت بالسكتة القلبية حين شاهد هدفاً يسجل في مرمى النادي الذي يشجعه، هذا هو

أكبر همّ ينشغل به أحد أساتذة الجامعة، فماذا يكون حال تلاميذه؟!

يقول د. مصطفى لشباب مصر وفتياتها عن الإعلام:
إن كل شبكات التليفزيون في أمريكا أصحابها يهود. وكذلك الإذاعات والصحف. ودور النشر وصناعة السينما كلها في أيدي يهود وكل رئيس أوروبى حوله بطانة أغلبهم من الصهاينة، وكان جميع مستشارى ميثران من الماسون، وهذا الكلام وارد فرنسا، وليس من بنات أفكارنا، فالنفير الصهيونى يزعم من وراء كل فيلم، وكتاب وإذاعة وتليفزيون.
وانظروا إلى سذاجة الإعلام يقول د. مصطفى عن مؤتمر السكان:

جرائدنا تعيش هذه الأيام فى محفل كاذب، وما نشأت ببنت عريض (إعلان القاهرة يحدد مستقبل البشرية لعشرين سنة قادمة) هكذا ببساطة شديدة، أى مجموعة من العباقرة تقدر على تحديد المستقبل، إن أصحاب تلك المانشئات لا يضمن الواحد منهم عمره لمدة عشرين دقيقة، فمن أين جاءوا بهذا التفاؤل، إنها الهيصة والزيطه والمولد. مؤتمر السكان فى بنوده إنفاق الدولارات لتخفيض المواليد، ولا يوجد بند واحد لإنفاق الدولارات فى التنمية.

ويقول: أنا معجب بالعلم فى الغرب وأتابع وأتعلم وأتلمذ. ولكن انظروا إلى فنون الغرب: الغناء رقص وصراخ يصك الأذان، والسينما جنس وعنف، والرياضة جنون الشهرة وسعار المال، والسياسة التحالف على كل مسلمى الأرض لأن الإسلام فى رأيهم طاعون المستقبل. هذا هو الغرب الذى تعبدونه، وليس كله عسلا كما ترون، فلا تبالغوا فى حماسكم ولا تبالغوا فى إعجابكم.

ويقول:

الحضارة المادية تنمو على حساب الروح، وقتل الضمير ديانة جديدة، والمبشرون بها مايكل جاكسون ومادونا، وسلفستر ستالوني، وشوارزنجر.

سألت د. مصطفى عن الهدف من نشر الروايات وعرض أفلام الرجل الأخضر والخارق ورجل المستحيل؟

قال: إعلام الناس أن الإنسان قادر على كل شيء. وعلى فعل المستحيل، وتحقيق ما يريد تحقيقه مهما كان صعباً، فكرة السوبرمان عند نيتشه، وأن يكون هذا الإنسان بديلاً لوجود الله سبحانه وتعالى، فالهدف محو وجود الله تعالى من أذهان الناس، وهي فكرة يهودية خبيثة يخططون لها بتدبير محكم وإتقان محسوب بدقة، ويرضع الأطفال لعب الآتاري والكمبيوتر والكبار دروسهم الخصوصية، التي تبثها الأقمار الصناعية، الممارسات الجنسية وآخر أوضاعها، ووسائل الإجهاض، أحدث مبتكرات العلم الحديث. تستخدم لترويج أسوأ وأحط سلعة ظهرت في التاريخ. بدلاً من تجويد الإنتاج، وتحسين الزراعة والصناعة.

وشبابنا يقع في الأسر وإضاعة الوقت وإتلاف العقل وتبديد العمر فيما لا يفيد، يحملقون طول عمرهم في التلفزيون لا أحد يقرأ أو يتعلم.

وعن السينما العالمية يقول:

قال النجم السينمائي مارلون براندو وهو يهودي: إن اليهود يسيطرون على هوليوود، وقامت قيامة الصهيونية عليه، أصبحت الأفلام كوابيس عن إطلاق الرصاص وتفجير القنابل والشخص المدمر، التي تنسف وتدمر وتقتل. وهذا الحال أصاب السينما في العالم كله بالعدوى. وهذا لم يحدث عفواً وإنما ب خطة وتوجيه وإرادة.

وعن الأغاني الأوروبية التي انبهر بها شبابنا يقول:
فرقة البوب في ألمانيا، أغانيها صراخ، وصياح، وعنف. يقولون
عن المهاجرين إلى ألمانيا وكلهم من الترك والمغاربة والجزائريين
والباكستانيين:

اقتلوا أطفالهم.
احرقوا بيوتهم
استأصلوا شأفتهم.
خربوا ديارهم...

أي المطلوب تخريب ديار كل المهاجرين في ألمانيا.
ولا أدري يا سيدى هل يردد شبابنا هذه الأغنية أم لا؟ وهل
أذاعها برنامج (العالم يغنى)؟ يجب أن تلتفت إلى هذا الأمر،
والعالم الذى يغنى هو أوروبا وأمريكا فقط. أما دول الشرق
الأوسط والعالم العربى فلا تغنى إلا فى شهر رمضان.

وعن المسلسلات الأجنبية التي يعرضها التلفزيون يقول:
المشاهد لمسلسلات التلفزيون، والمسلسلات الراقية وارد
أمريكا، الجري والجميلات. ماذا تنتظر منه؟ ماذا تنتظر من أسرة
مصرية تجلس لتشرب جرعات الانحلال فى عبوات من الزينة
والبهرج، شهوات، ومثيرات تأخذ بالمشاهدين إلى أسفل، المسلسل
يقول: إن العفة والطهارة والفضيلة والوفاء والإخلاص علامة
تخلف ورجعية. وشعار المسلسل: لا حياء ولا أخلاق، ولا خيانة
أن تخطف زوجة أخيك أو ترى زوجتك فى فراشه، هذه أمور
طبيعية، وما نراه هو معد بتفكير وتدبير وتجهيز دقيق لإغراق
وإفساد وتفكيك بنائنا الاجتماعى، ونحن نشترى هذه الجرعات
السامة بأموال دافعى الضرائب، والذين يظنون أنهم بهذا يحدون
من غلو الموجة الدينية هم على خطأ، فإنهم سوف يستنفرونها.

■ تبصير وتنوير ■

وكاتب المسلسل يهدم أشرف ما ورثناه وهو يبتسم كل ليلة. ولكننا لا ننكر أن التليفزيون يقدم مسلسلات جيدة وهادفة، فليس كل ما يقدمه سيئاً. نقول هذا إنصافاً للحق، لقد أصبح التليفزيون الوعاء الأول للكلمة، ثم بعد مسافة تأتي الصحافة، ثم أخيراً الكتاب.

وما هو المقصود من البرامج التي تنتهى الرابعة صباحاً؟ إذا قلت: هناك بعض الناس أصحاب أعصاب مرهقة لا يواتيهم النوم. نقول: هؤلاء أصحاب أعصاب خربة، لا يدخلون فى خطة البرامج العامة، وإنما يدخلون فى اختصاص وزارة الصحة.

والعجب كل العجب أن يحتفظ الإنسان بعقله وسط ما يحدث. أفيقوا أيها الناس يرحمكم الله.

فأنتم غداً ميتون، ثم أمام الله واقفون.

أقول: لعل شبابنا يعقلون هذا الكلام ويراجعون أنفسهم، وكذلك المسئولون عن التليفزيون، فالدكتور مصطفى محمود لا يريد إلا الخير والفائدة لهم.

وقد أشرنا فقط إلى بعض تبصيرات كاتبنا لقرائه، ومن أراد أن يتبصر أكثر، فليرجع إلى مؤلفاته. فهذا هو التنوير الحقيقى الصادق، وما عداه إظلام، وإغراق القارئ فى ظلمات بعضها فوق بعض، ونكرر أن د. مصطفى محمود، كشف هذه الأمور الخفية نتيجة بصيرته النورانية، وإلهام الله له، وصحبته لأهل الله، من الصوفية العارفين الأكابر.



د. مصطفى محمود

والتصوف



الكتاب

الغمام

حسن الختام هو ما يتمناه ويسعى إليه كل إنسان مؤمن، والعبرة بالخواتيم، وكلنا نرجو من الله أن يختم حياتنا برضاه عنا وحبه لنا؛ فحب الله للعبد عناية عظيمة لا تضر معها معصية، وبغضه للعبد مصيبة كبيرة لا تنفع معها طاعة، وحب الله للعبد أساسه متابعة الرسول ﷺ قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، ومن علامات حب الله للإنسان، إلقاء حبه في قلوب الناس دون سعيه إلى ذلك، وإن سعى إلى هذا الهدف لن يناله، وإن ناله سوف يفقده عن قريب؛ فالقلوب بيد الله، والذي يحبه الله تحبه جميع المخلوقات، قال ﷺ عن جبل أحد: (هذا جبل يحبنا ونحبه) بما فيهم البشر، فلا يبغضه إلا منافق أو فاجر، ويكتب الله له حسن الختام إذا ظل متمسكا بالكتاب والسنة عن بصيرة لا عن جهل، حتى يلقي ربه، وندعو الله أن يكتب للدكتور مصطفى محمود حسن الختام.

ود. مصطفى -ولا أزكى على الله أحداً- كاتب أحببه الأكثرية من الناس، ومما يغبطنا أنه صار قدوة لأغلب أولادنا المستنيرين الذين نشأوا وتربوا على حب الأخلاق الفاضلة والأهداف العظيمة، والدليل على حب الناس له، إعجاب كل مشاهدي التليفزيون ببرنامج العلم والإيمان. وقد سألت مرة أحد المذيعين الجمهور عن أحب البرامج إلى أنفسهم فأجاب أغلب المشاهدين: حديث الشيخ

الشعراوى والعلم والإيمان لمصطفى محمود. وبعض البرامج نالت نسبة من إعجاب قليل من الناس، والدليل الثانى: أنه كان ضيفا فى برنامج (دردشة) وانتظره المشاهدون بفارغ الصبر، وبعد إذاعته انهالت الطلبات من الجمهور على مقدمة البرنامج، يرجونها أن تعيد الحلقة مرة ثانية، وهو الضيف الوحيد فى هذا البرنامج الذى رغب الناس فى مشاهدته مرة ثانية، وأعيد تقديم الحلقة.

والذين يحبون د. مصطفى هم جمهرة الناس البسطاء الأسوياء. وتفرح أى أسرة منهم إذا قال أحد أولادهم أن مثلى الأعلى مصطفى محمود. وقد سمعت ذلك من الكثيرين، وهم يشعرون بالاطمئنان إذا وجدوا أولادهم يقرأون مؤلفاته، وهذا من حب الله له، ولا أدري لماذا لا يفسح التليفزيون مجالا له ولأمثاله، كى يشاهدهم الناس، إذا كان المشرفون على التليفزيون يرغبون فى إرضاء أذواق شتى طبقات المجتمع؟ ويشهد الجميع أن حديثه ممتع وجذاب وطريف ومسل ومفيد جدا، وكثير من المشاهدين تغيرت أحوالهم إلى الأحسن بفضل مشاهدة برنامج العلم والإيمان.

ونحن لا نجاهل د. مصطفى بما ذكرناه، فليس المشهور أفضل من المستور. والله أعلم بالقلوب، فقد يكون العكس هو الصحيح، وكاتبنا يعرف ذلك جيدا.

ونحن فى عصر انتشرت فيه الرذيلة والفساد وانكب الناس على الدنيا، أى انتشر وباء مرض القلوب والنفوس، فلا بد من حملة لشفاء الناس من هذا المرض، كما تقوم وزارة الصحة بحملة تطعيم ضد أى وباء. وليس هناك وباء أشد من انتشار وباء فساد الأخلاق.

والذين يقومون بالتصدى لهذا الوباء هم أهل العلم مثل

■ حسن الختام ■

د. مصطفى وأمثاله. فهو يتحدث في اعتدال ووسطية وتعقل ورؤية للأمور هي إلهام الهى، وهو يحاول جمع الصف الإسلامي والمسيحي في مصر، وينصح المسلم كما ينصح المسيحي، ويهاجم الإرهاب والتطرف بعرض أسباب وجيهره ومقنعة. ويأتى بأفكاره من الواقع، فهو يرى أن الوثوب على السلطة والحكم باسم الإسلام تضليل وخداع، ودليله ما حدث في أفغانستان والسودان، ويحاول كشف الدسائس الصهيونية التي تسعى إلى غرس الفرقة والصراع بين الدول العربية، ويسعى في كتاباته إلى جمع العرب في قوة واحدة، وتوحيد المسلمين في شتى أنحاء العالم ووقوفهم معاً، ويدعوهم إلى رفع راية الإسلام الحقيقي الذي يتسم بالسماحة والعفو والقوة في نفس الوقت. وهو رجل لا يسعى إلى سلطة أو منصب، بل رفض ذلك حين عرض عليه الرئيس السادات تولى بعض المسئوليات في وزارة الثقافة؛ فتحمل المسئولية بلاء عظيم، كان يفر منه الصحابة رضوان الله عليهم، وعمر بن عبدالعزيز أوضح مثال على ذلك، فقد قال حين تولى الخلافة: «أشيروا على فقد ابتلاني الله ببلاء شديد!».

وكونه يرفض المذهب المادى الشيوعى، الذى هو بعض أسباب الهجوم عليه حتى الآن حق، فكل من يعرف الله، ويتمسك بكتاب الله وسنة رسوله الله يرفض هذا المذهب الإلحادى، وقد رفضه المرحوم الغزالي، والشيخ الشعراوي، ود. يوسف القرضاوى، وكل المسلمين الذين يعرفون الدين الصحيح، وكتابنا يدور حول الجانب الصوفى من حياة د. مصطفى وأعماله، والتصوف درجة عالية من الإسلام، هي مقام الإحسان، وقلنا إن كاتبنا منحب وعاشق للتصوف، وها هو يعيش الحياة طولا وعرضا، ولا نقصد الدنيا الزائلة، بل الدنيا لله وللآخرة. فنراه يكتب ويسافر إلى كل

دول العالم فى طلب العلم وفى سبيل تحقيق رسالته، ويوضح الحقائق، ويجاهد بقلمه وبكل ما يملك من قدرات، ويجاهد نفسه حتى هذه اللحظة؛ فليأخذ المسلمون عامة والصوفية خاصة العبرة من حياته، ولا يركنوا إلى الكسل والتبؤد والاستكانة والضعف والجهل، ونرجو أن يكون عرضنا للدكتور مصطفى كنموذج للمسلم المحب للتصوف، دافعا قويا لهم، لمحاولة فهم التدين الإسلامى الصوفى والعمل الجاد، وأن يكون هدفنا من الكتاب قد وصل إلى القارئ. وهو معرفة حقيقة سر تكوين شخصية مصطفى محمود، وسر إبداعه فى مؤلفاته، وهذا السر هو تمسكه بالكتاب والسنة وعشقه للتصوف، وصحبته لأهل الله العارفين، والكتاب ما هو إلا مدخل لمعرفة كاتبنا من زاوية جديدة على القارئ، ودعوة لقراءة د. مصطفى محمود من جديد، وإن خرج القارئ بهذا المفهوم. فقد أدينا ما علينا بفضل الله وعونه.

والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين محمد ﷺ وعلى آله وصحبه أجمعين.

الفهرس

الموضوع	الصفحة
تمهيد	٥
مقدمة	٩
١- إشارات الوصول إلى مضمون الفصول	١٧
٢- حوار مع د. مصطفى محمود عن التصوف	٢٣
٣- الإبداع والإيمان والتصوف	٢٩
٤- البصمات الصوفية فى حياته	٦١
٥- النبيرة الصوفية فى ابداعاته الأدبية	٨٣
٦- التصوف الخالص فى مؤلفاته	١١٣
٧- تبصير وتنوير	١٤٥
٨- حسن الختام	١٦١

رقم الإيداع ٩٩/١٩٩٧

الترقيم الدولي

I. S. B. N.

977 - 08 - 0780 - 8



أكثر من ٤٠٠ رحلة أسبوعيا
إلى ٩٤ مدينة عالمية ومحلية

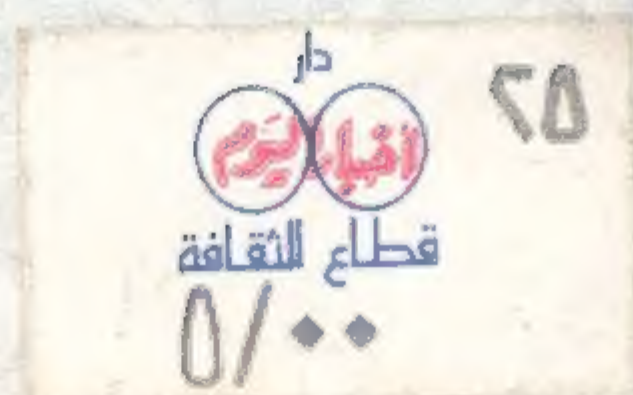


4
9

Bibliotheca Alexandrina



0659379



طبع بمطابع أخبار اليوم